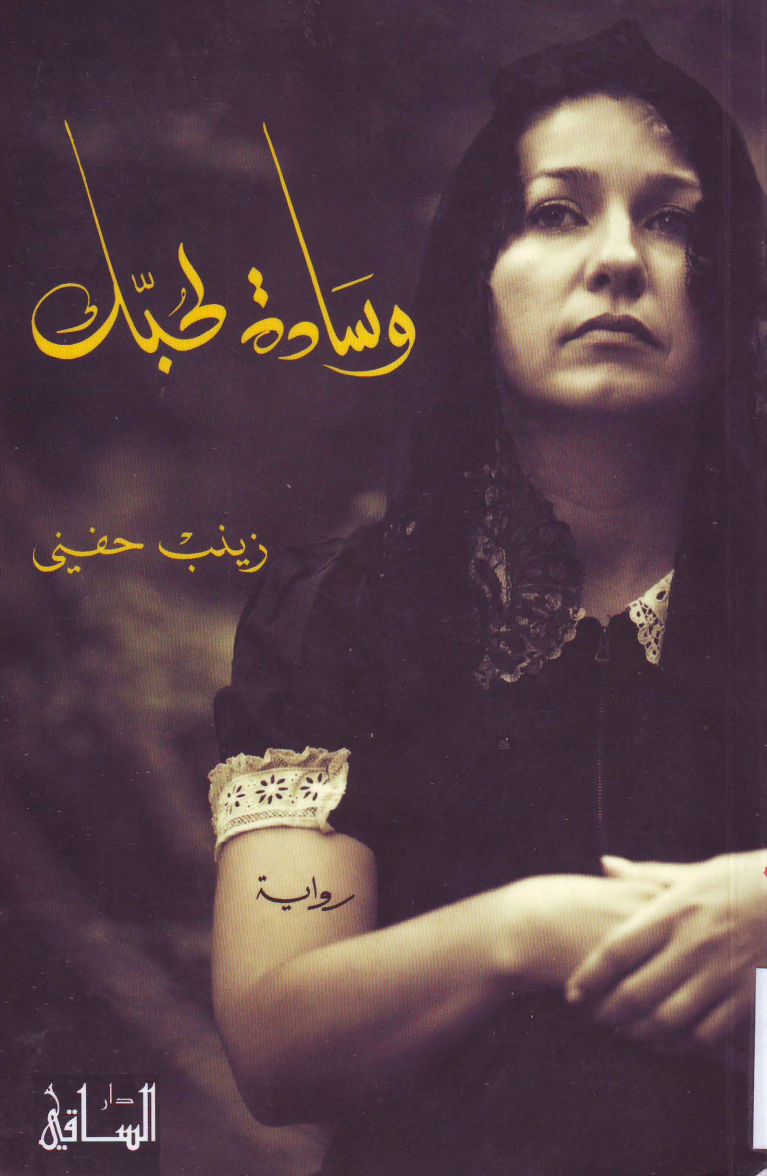
وسادة لحبك
زينب حفني
رواية
دار الساقي

تصميم الغلاف: ماريا شعيب
خطوط العناوين: علي عاصي

زينب حفني

وسادة لحبك

رواية

دار الساقي
بيروت – لندن

© دار الساقي
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى ٢٠١١

ISBN 978-185516-301-0

بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب. ١١٣ / ٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي ٢٠٣٣-٦١١٤
هاتف: ٩٦١ ١٨٦٦٤٤٢ - فاكس: ٩٦١ ١٨٦٦٤٤٣

e-mail: info@daralsaqi.com

بدايتي

الليل يسأل من أنا
أنا سرُّهُ القلق العميق الأسود
أنا صمتُهُ المتمرِّدُ
قَنَّعتُ كنهي بالسكونْ
ولففتُ قلبي بالظنونْ
وبقيتُ ساهمةً هنا
أرنو وتسألني القرون

قصيدة «أنا»
نازك الملائكة

(١)

كانت أنوار الحديقة خافتة حين دلفتُ إلى داخل «الفيلا» تُرافقني خادمتي الآسيوية. السكون يُطبق بإحكام على أرجاء المكان، تخترقه طقطقة كعب حذائي العالي. انتبهتُ إلى ظلِّي يُلاحقني بخطوات متكاسلة. الساعة تُشير إلى الخامسة صباحاً. صوت المؤذن من المسجد القريب يصدح منادياً لصلاة الفجر: «حيِّ على الصلاة... حيِّ على الفلاح... الصلاة خير من النوم». كنتُ في غاية التعب والإجهاد. عيناي ناعستان. أهدرتُ دقائق في البحث عن مفتاح البيت الملقى في قعر حقيبتي. تنفَّستُ الصعداء. أخيراً أحكمتُ قبضتي عليه. دلفتُ لمخدعي. أوصيت الخادمة بنبرة متهالكة بأن توقظني عند الظهيرة. أزحتُ عباءتي عن جسدي. طرحتها على الأرض. عانقتُ سريري بكامل ملابسي. لم أجد في داخلي طاقة لارتداء منامتي أو النهوض لأداء الصلاة. أطلقتُ تنهيدة طويلة مرددة: كانت ليلة جميلة. تناهى إلى سمعي صوت صادر من أعماقي اعتدتُ سماعه: ها قد أصبحتِ

وحيدة. آه! كم أكره هذه العبارة السمجة. هربتُ من السجال مع نفسي. آثرتُ الاندساس في أحضان النوم. تركتُ لها نفسي. حلمتُ حينها أحلاماً متشابكة دارت جميعها حول زفاف ابنتي الوحيدة وعد. مشهد وقوفها في الشرفة على أغنية ماجدة الرومي «طلّي باللون الأبيض يا زهرة نيسان». إلقاؤها باقة الورود وسط القاعة. تَدافع الصبايا لالتقاطها. رقصتها مع زوجها في «الكوشة» على أنغام أغنية عبد المجيد عبد الله «حبيبي اللي سكن بالعين عليه أحسد أنا عيني. ألا يا ليت لي قلبان وأحبه بكل قلبيني. يا سيدي وسيد الحلوين يا ورد اللي في بساتيني. أحبك في القسا واللين ومن غيرك يسليني؟». قبلاتي لها عند باب القاعة بعد انتهاء حفلة العرس. جملة التوصيات التي أمطرتُ بها زوج ابنتي، بأن يرعاها ويضعها في عينيه. ذهابهما إلى الجناح المخصص لهما في الفندق. استيقظتُ على نقرات خادمتي على الباب وهي تقول: «سيدتي، الساعة تجاوزت الواحدة ظهراً». فتحتُ عينيَّ بتثاقل. طلبتُ إليها أن تُعدَّ لي فنجاناً من القهوة. صداع عنيف يكاد يفجِّر رأسي. احتسيتُ قهوتي على عجل. أحسستُ بالحاجة إلى دعك جلدي بالليف والصابون. ملأتُ «البانيو» بالماء الدافئ. غطستُ فيه. أغمضتُ جفنيَّ. استرخيتُ فيه لدقائق. جفَّفتُ جسدي المبلل. جلستُ أمام مرآتي بـ «روب» الحمام. أزلتُ بقايا «ماكياج» الأمس العالق بوجهي. استعدتُ عبارات الإطراء التي انهالت عليَّ في حفل زفاف وعد. الجميع كان يُردد أنني كنتُ في غاية الأناقة

والتأُّلق وأنني بدوت بجانب ابنتي كأختها الكبرى. أزحتُ «الروب». تمَّعنتُ في خريطة جسدي. غمرني الارتياح. حمدتُ الله على أنه لا يزال متماسكاً، خالياً من تعرُّجات الدهون، رغم العقود الأربعة التي تخطيتها للتو. طافت ابتسامة رضا على صفحة وجهي. هززتُ كتفيَّ. ربما لأنه كان دوماً حصناً عصيّاً على الغرباء! أو ربما لأن مدة استهلاكه لم تطُل! كان القدر قد منحني لقب أرملة منذ سنوات توقَّفتُ منذ أمد عن عدِّها! ارتديتُ «بدلة» بنيَّة اللون من قماش اللينون الذي أميل إليه. لبستُ تحت الجاكيت قميصاً من الشيفون مقلَّماً باللونين الأصفر والبنِّي. عقصتُ شعري عند مؤخرة رأسي. ضممته بشريط أصفر. فضَّلت إبقاء وجهي صافياً من دون مساحيق.

كانت الساعة تشير إلى الثالثة عصراً حين دخلت بهو فندق «الهيلتون» المطل على الكورنيش. وقفتُ أمام مدخل جناح العرائس الذي نزلت فيه ابنتي. ضغطتُ على جرس الباب. ما إن أطلَّت منه حتى أخذتها بلهفة في أحضاني. جلستُ في المقعد، التقطتُ أنفاسي، أجلتُ فيها نظري. كانت ترتدي منامة حريرية من «الساتان» الأبيض وعلى أطرافها خيوط من شرائط «الدانتيل» باللونين الأبيض والأسود. تأملتها بإعجاب. سألتها بحنو: «هل كل شيء على ما يُرام؟». أرخت أهدابها. تخضَّبت وجنتاها، قالت: «اطمئني يا أمي. أنا بخير». تطرَّقنا لحفلة العرس. كيف أن كل شيء كان منسَّقاً ودقيقاً. بقيتُ معها حوالي ساعة. قبَّلتها وانصرفتُ.

شعرتُ وأنا استقل المصعد بأن ابنتي قد غدت غريبة عني، بأنها خرجت إلى الأبد من حياتي. أضحى لها عالمها الخاص. صارت تحت إمرة رجل مسؤول عنها. كان هذا يعني أن صلاحيتي قد انتهى تاريخها، مثل المعلبات التي نُلقيها في سلة القمامة عندما تُصبح غير صالحة للاستعمال الآدمي.

حال وصولي إلى البيت، وجدتُ نفسي منساقة باتجاه غرفتها. رحت أدور في أرجائها، أتأمل الصور المعلقة على الحيطان. هذه الصورة التقطتُها حين كان عمر وعد لا يتجاوز الشهر الواحد. والصورة الأخرى التي ترتدي فيه زيها المدرسي كانت عند دخولها للمرة الأولى إلى المدرسة، في الخامسة من عمرها. وتلك في حفل تخرُّجها من الثانوية العامة، وفيها تقف وسط مجموعة من صديقاتها. وهذه في حفل تخرُّجها من الجامعة. أمَّا هذه، فقد التقطتُها ليلة عيد ميلادها الثامن. كان آخر عيد ميلاد يحتفل به والدها معها. رحلت روحه عن دنيانا قبل أن تُكمل وعد أعوامها التسعة بأشهر قليلة.

أطلقتُ زفرة حارة. ترقرق الدمع في مقلتيَّ. ما أسرع السنين! تمرُّ في غمضة عين. تجرفنا مشاغل الحياة. نجد أنفسنا في منتصف الطريق من دون أن ندري. لم تزل مشاهد طفولة وعد واضحة أمام ناظريَّ. أول مرة حبَتْ فيها على الأرض. أول مرة مشتْ فيها على أطراف طاولة غرفة الجلوس. ملاحقتي لها لتكمل طعامها. خوفي

الدائم عليها. كانت في السابعة يوم وقعت على الأرض وشجَّت ناصية رأسها عند خط شعرها الأمامي. لم أنتظر أباها ليرافقنا إلى المستشفى. ركبتُ سيارة أجرة وهرعتُ بها إلى هناك. خاط الطبيب جرحها بأربع غرز لا تزال آثارها باقية. توقَّف شعرها عن النمو في تلك البقعة الصغيرة. أداعبها كلما لمحتها تضع يدها عليها، وأقول لها: «هذا دليل دامغ على شقاوتك وأنتِ صغيرة». تُطلق ضحكاتها العفوية. انحدرت فجأة الدموع من أرضية عينيَّ. علا صوت نحيبي. ألقيتُ بنفسي على سريرها. احتضنتُ وسادتها. كانت رائحتها تفوح في أرجاء غرفتها. أتذكَّر أنها ظلت لسنوات بعد وفاة والدها تنام في أحضاني. أحرص على أن أضمها إلى صدري. أدع أنفاسها تحكُّ أرنبة أنفي. تُعلِّق ذراعها برقبتي. تُنصتُ باسمة وأنا أغنِّي لها أغنية الفنانة صباح «أُمُّورتي الحلوه بَقِتْ طعمه ولها سحر جديد. لها خفِّة روح لما بتضحك بتروح لبعيد. معذورة يا ناس لو خبِّيتها من العيد للعيد. لو شفتوا جمالها حَتحتاروا تحتاروا تحتاروا. والبيض والسمر حَيداروا حَيداروا. والحب حَتحصل فيه أزمة وتسعيرته حَتزيد». تُسدل جفنيها. تغطُّ في نوم عميق. تنبَّهتُ على صوت الخادمة تسألني: «سيدتي، هل أحضِّر لك طعام العشاء؟». أجبتها بالنفي. لم أكن أشعر بشهية للأكل. نظرتُ إلى ساعة يدي. كانت تُشير إلى التاسعة مساء. سحبتُ نفسي من فراشها، مُردِّدة بصوت منفطر: الله يسعدك يا ابنتي.

دخلتُ مخدعي. فردتُ جذعي السفلي على السرير. أسندتُ ظهري على رافعته الخلفية. مددتُ ذراعي. فتحتُ درج «الكومودينو» وأخرجتُ ألبوم صوري. وضعته في حجري. تنبَّهتُ لورقة بداخله. مُصفرَّةٌ. مطوية بعناية. فتحتها. كانت مكتوبة بخط يدي. تاريخ تدوينها بعد وفاة عماد بعام واحد تقريباً. سطورها موجَّهة إلى ابنتي وعد: «بنيَّتي... عندما يحين المساء، أحتوي جسدك الصغير في حضني. أجدك تتشبَّثين بي خوفاً من أن أتركك. حبيبتي، لن أتركك يوماً ولن أجعلك تفتقدين حناني، ما دام هناك في سجل عمري سنون سأعيشها من أجلك. كم أنا حزينة لأنك حُرمتِ من أحلى كلمة يحب أن ينطق بها كل طفل، وهي كلمة «بابا». أحيانا كثيرة لا أصدِّق أن أباك رحل عنا إلى عالم آخر. لا أزال أشعر بروحه تعيش بيننا. كنتُ أراه أحياناً يضعك في حجره، يُقبِّل يدك الصغيرة، يُمشِّد شعرك بكفِّه، يشرد بذهنه في البعيد، يُخاطبك: «تُرى هل سأكون موجوداً يوم عرسك يا حبيبتي؟!». أغضب منه. أقول له معاتبة: لمَ هذا التشاؤم؟! سترى بإذن الله أحفادها. بنيَّتي... إني أراك كل يوم تتفتَّحين كالوردة اليانعة مع إطلالة الصباح. أراقبك وأنت تمرِّين بأحلى سنوات عمرك. أبقاك الله في حياتي لتُضفي عليها الفرحة والسرور».

أطلقتُ تنهيدة حارة. ازدردتُ وجعي. طويتُ الورقة. دسستها في الدرج. أخذتُ أقلِّب صفحات «الألبوم» بتأنٍّ، أتمعَّن بأسى في كل صورة، استعيد تفاصيلها. يا إلهي! لا أصدق أن أكثر من أربعة

وعشرين عاماً قد مرَّت على زواجي!! كل من يعرفني يؤكِّد أن على صفحة وجهي ترتسم مسحة جمال هادئ، أنني أملك عينين واسعتين كعينَي مهرة جامحة وضاءتين ببؤبؤين بنيَّي اللون يعومان في أرضيتين شديدتَي البياض، أن لي شعراً غجرياً كثيفاً كالح السواد بخصلات لم تزل فتيَّة رغم الشعيرات البيضاء التي غزته مؤخراً. يعتقد الأهل والأصحاب أنني امرأة محظوظة لكون ضربات الأيام لم تفلح في إطفاء وهجه. تجرَّأتُ على تقصيره قبل زفاف وعد بأيام، جعلته يقف عند حدود كتفيَّ.

توقَّفتُ عند صور زوجي. غرستُ حدقتيَّ في ملامحه المشرَّبة بالطيبة. شردتُ بذاكرتي إلى نقطة البداية. كان عماد صبيح الوجه، حنوناً، حسن المعشر. لم أعرف معه ذلك النوع من الحب الملتهب الذي يتحدثون عنه في الأفلام المصرية، أو تلك التي تغصُّ به المسلسلات المكسيكية والتركية «المدبلجة». طوال مرحلة شبابي لم يلفح صفحة وجهي صهد التولُّه والهيام، لكنني عشت مع زوجي في سعادة مفرطة. كان قد تخرَّج من كلية الهندسة بجامعة القاهرة. رفض عند عودته الاستماع إلى نصيحة والده بالعمل في سلك الحكومة. آثر فتح مكتب خاص للاستشارات الهندسية بمشاركة زميل له، في واحدة من العمائر العالية الأدوار المطلة على ميدان فلسطين. كان زواجنا متفقاً عليه قبل أن أشبَّ عن الطوق، إذ ترتبط أسرتينا بصداقة متينة قبل أن نُطلق صيحاتنا الأولى في الدنيا. كنتُ أرفل في أعوامي

الستة عشر عندما تزوجته. كانا والديَّ يؤمنان بأن ظلَّ رجل أفضل ألف مرة من شهادة سأعلقها في نهاية الأمر على حائط المطبخ أو في غرفة النوم، مُعتبرين عماد عريس «لقطة» ومطمحاً لأي فتاة. أتذكَّر جيداً ليلة خُطبتي. كنتُ أرتدي ثوباً زهري اللون مُحاطاً من الخصر بشريط من «الساتان» الأرجواني. انتفضتُ ليلتها من الخجل وهو يضع في خنصري «دبلة» الخطوبة. كان يكبرني بتسعة أعوام. له جسد فارع الطول يُوحي بأنه أحد أبطال رياضة التنس. له بشرة حنطية وشعر كستنائي وعينان غائرتان تعوم في بياضهما الدعة والاستكانة، ممزوجتان بشعاع من التفاؤل يفيض عن الحد المطلوب.

أطلَّت أحداث الماضي من كوَّة ذكرياتي. حضرت أمي في خاطري؛ دخولها حجرتي قبل زفافي بأيام، حديثها الهادئ عن تفاصيل ما سيجري معي ليلة الدخلة، نصائحها لي عن كيفية تصرفي لحظتها. لم أستطع وضع عينيَّ في عيني أمي. تملَّكني حرج كبير. كدتُ أذوب حياء. عندما فرغتْ من توصياتها، قبَّلتني على وجنتيَّ، وأخذتني في أحضانها داعية الله أن يوفقني في حياتي الجديدة. أن يكون عماد زوج الدنيا والآخرة.

حياتي مع عماد لم يكن فيها منغِّصات تشغل بالي. نادراً ما كنا نتشاجر. كنتُ أعشق الأفلام بالأبيض والأسود. وكل أفلام سعاد حسني. ينفجر من الضحك حين يراني أذرف الدمع على المشاهد

الحزينة. أحب فيلم «معبودة الجماهير». كل مرة أبكي بحرقة عند مشهد عبد الحليم حافظ وهو يقف أمام شادية، مُقسماً لها بأغلظ الأيمان بأنه سيجعلها تندم على تلاعبها به. أحياناً، فيما كنا نتابع هذه النوعية من الأفلام الرومانسية على شاشة الفيديو، كنت أسترق النظر إليه. على طرف لساني يقف سؤال مُحيِّر: لماذا لا ألمح في عينيه ذلك الشوق العارم الذي أراه في عيون أبطال هذه الأفلام؟! سألته مرة ونحن منهمكان في متابعة فيلم «حبيبي دائماً»: «حَتِفضل تحبني حتى لو جاني مرض خطير، زي ما كان نور الشريف بيحب بوسي؟». في تلك اللحظة تأمل صفحة وجهي بحنان قائلاً: «كبِّري عقلك يا فاطمة. دا كله كلام أفلام. المهم كيف يُعطي الراجل لمرته الحنان، ويرعاها ويوفر لها كل اللي تحتاجه».

أنجبتُ وعد بعد ثلاثة أعوام من زواجنا. كنا قد ترددنا على عيادات الأطباء. كلهم أجمعوا أن زوجي حيواناته المنوية ضعيفة، ما إن ترى ضوء الأرض حتى تُقرر الانتحار قبل أن تُلقِّح بيضي. لم أرَ عماد بهذا القدر من السعادة. جل وقته كان يقضيه في ملاعبة وعد، منذ اللحظة التي يدلف فيها البيت إلى أن يزفَّ موعد نومها. عندما ألْفتُ انتباهه إلى مبالغته في تدليلها، يضحك قائلاً: هل تغارين عليَّ من ابنتك؟! أتعرفين لماذا تزداد غلاوتها في قلبي يوماً بعد يوم؟ لأنها صورة طبق الأصل عنك. أحياناً تتعكَّر سحنته، ينظر ناحيتي قائلاً بنبرة موجوعة: «لم أكن أود أن تكبر وعد فتجد نفسها وحيدة، لا أخ ولا

أخت بجانبها». أُهدِّئ من روعه. أُفهمه أنَّ هذه مشيئة الرحمن التي ليس لنا دخل فيها. كان برنامج حياتي اليومي موزَّعاً بين الاعتناء بوعد وتلبية مطالب زوجي. يبدأ نهاري بإعداد وجبة الإفطار له قبل ذهابه إلى المكتب. أنهمك بعدها في شؤون البيت وإعداد أصناف الطعام التي يحبها. تساعدني في مهام البيت خادمة حبشيَّة. أصرَّ على أن يُحضرها لتعاونني. أحرص على الاستماع إلى برنامج الأسرة الذي يُبَثُّ صباحاً عبر المذياع لكتابة وصفات طعام حديثة. نبدِّد نهاية الأسبوع في تبادل الزيارات مع الأهل أو مع بعض الأصدقاء المقربين وزوجاتهم.

بدأنا حياتنا معاً بالعيش في شقة من أربع غرف براح، بعمارة والده الكائنة بحي السلامة. كان البيت من ثلاث طبقات. قرر والده جعل الطبقة الثانية لنا، والثالثة لولده الآخر، وخصص الطبقة الأرضية ليُقيم فيها مع حماتي. زرع في فناء البيت شجيرات الحبق والريحان والياسمين. صار يقضي جلَّ وقته في الاعتناء بها قبل أن يهدَّه المرض.

مات والد زوجي بعد معاناة طويلة مع مرض السرطان. لم يرَ وعد. رحل قبل أن ألدها بشهرين. كان قد أهدر جزءاً كبيراً من ثروته على علاجه في الخارج. اشترى عماد من الإرث المتبقي لوالده أرضاً بحيِّ الشاطئ. قدَّم طلباً إلى البنك العقاري لبناء فيلا. كان يميل إلى بناء بيت العمر من طبقتين. استجاب لطلبي حين أبديتُ رغبتي في

أن تكون من طبقة واحدة. الفيلا مكوَّنة من خمس غرف، ومُحاطة بحديقة صغيرة، إضافة إلى غرفة للسائق بناها في زاوية من زوايا فناء البيت. مظهر البيت رائع من خارجه. مطليٌّ كله باللون الأبيض، إضافة إلى سقفه المائل المُغطَّى بالغرانيت القرمزي.

أمضيتُ أياماً حلوة في هذا البيت. لم أكن أعرف شيئاً اسمه غدر الأيام أو تقلبات القدر. اعتدتُ كل ليلة دفن رأسي في حضن زوجي. أنفاسه الهادئة وهي تعلو وتهبط تُشعرني بالطمأنينة، مثل الطفل الذين تُهدهِده أمه في حجرها فيصبح غير عابئ بما يجري خارج نطاق عالمه. تحسَّنت أحوالنا المالية كثيراً بعد عدة أعوام من زواجنا. كان يقول لي: «وعد وجه السعد علينا. جاء الخير معها». قام بتسديد قيمة القرض. كَبُرَ رصيده في البنك. أصبح يحصل على مشاريع بملايين الريالات. أصرَّ على أن يكتب «الفيلا» باسمي. عندما اعترضتُ على ذلك، أجابني: «هذا قليل مقابل ما قدمتهِ لي من هناء وسعادة. أنا رجل محظوظ بك».

ذات نهار مُشمس وفيما أنا أقلب ورقة التقويم، اكتشفتُ أن عشرة أعوام قد مرَّت على زواجنا. فاجأني زوجي تلك الليلة بإقامة حفلة دعا إليها جمعاً من الأهل والأصدقاء. كانت أمسية رائعة قدَّم لي خلالها خاتماً مرصَّعاً بالماس نقش عليه أول حرف من اسمي ومن اسمه. قال لي باسماً: «أعدك بأنه عند مرور عشرين عاماً على زواجنا،

إنْ مدَّ الله في عمري، سأقيم حفلاً كبيراً في أحد الفنادق المشهورة في أي بلد تختارينه».

لا أزال أحتفظ بهذا الخاتم. كلما هزَّني الشوق إلى عماد، أهرعُ إلى علبة مجوهراتي، أخرجه، أتأمله، أُقبِّله، أبقيه في إصبعي بعض الوقت ثم أعيده إلى علبته. مرَّت اثنتا عشرة سنة على وفاة عماد. لم يدخل طوال تلك السنوات رجل غريب إلى حياتي، أو حتى مرَّ مروراً سريعاً على جسدي في ليلة عابرة، كما تفعل بعض النسوة الوحيدات في لحظات ضعفهن البشري.

ذلك الصبح المشؤوم، استيقظ زوجي كعادته، تعطَّر بعطره الشرقي، طبع على خدي قبلته الاعتيادية. لم ألحظ مع نداوة الصباح رائحة الموت التي كانت تنبعث بقوة من مسامات جسده. كانت ساعات قليلة قد مرَّت على مغادرته البيت. جاءتني مكالمة من سكرتيره يُخبرني فيها أن زوجي تعرَّض لأزمة قلبية وهو منهمك في اجتماع داخل مكتبه، وقد نقلوه إلى مستشفى سليمان فقيه.

خرجتُ أَجري كالمجنونة. كاد السائق أن يتسبب بحادثة، وأنا أحثُّه على مضاعفة السرعة. كنتُ أسابق الموت. لم يتسنَّ لي وداع عماد؛ لفظ أنفاسه في سيارة الإسعاف قبل ثوان من وصوله المستشفى. لم أصدِّق أن الموت قد تجرأ وأنتزع روحه، أنه تصرَّف معي بهذا الأسلوب الأخرق وأخذ مني شريك عمري في طرفة

عين قبل أن ينضب معين شبابه. كنتُ مصدومة. كيف يملك الموت هذا الكمَّ من القسوة ليسلبني الرجل الذي أذاقني طعم السعادة؟! لماذا لم يَفِ زوجي بوعده؟! لماذا لم يُقاوم الموت؟! ألم يعدني بأننا سنحتفل معاً بعيد زواجنا العشرين؟! عشتُ معه اثنتي عشرة سنة لم يقل لي خلالها كلمة جارحة. ظللتُ بعدها سنوات أحس بالموت يُشاطرني صحوتي ومنامي، يقول لي بصوت مجلجل: «لم يُخلق بعد من يقف في وجهي». أصابتني عقدة من الموت. لم أعد أحتمل مشاهدة صوره المخيفة ولا سماع قصص عن جبروته. أمُّ زوجي لم تتحمَّل فقدان ولدها. ماتت بعد رحيل عماد بستة أشهر. قبل أن تُغادر الدنيا بأيام، طلبت رؤيتي. ضمَّت وعد إلى حضنها. ترقرقت عيناها بالدموع وقالت لي: أشعر يا بنيَّتي بأن موعد ذهابي قد أزف. انتبهي لنفسك ولوعد.

عندما كانت ابنتي تُصاب بنزلة برد أو بأي وعكة صحية، كنتُ أبقى طوال الليل بجانبها. أضيء كل أنوار البيت. أقرأ سور من القرآن. أبتهل لربي في صلاتي ألا يدعَ الموت يُعاود الكرَّة ويأخذ مني فرداً آخر من أحبائي. يظلُّ جفناي مفتوحين على آخرهما، حتى ألمح أطياف الفجر متبخترة على أجنحة الضوء. لحظتها، أندسُّ تحت لحافي وأذهب في سبات عميق. لم يعبأ الموت بمراقبتي له ولم يخشَ ردة فعلي. في ليلة هادئة والقمر فيها بدر ساطع، وأمي تغطُّ في النوم، قرر الموت تطبيق قانونه القاسي. سلبها روحها من دون سابق

إنذار. هزَّها أبي في الصباح فوجد جسمها بارداً وذراعيها مرتخيتين وأنفاسها خامدة. أدرك أن الله أخذ وديعته. غطَّاها وقرأ عليها سورة ياسين بصوت باكٍ. ناداني وأخي لنستسمحها قبل أن ترحل إلى مثواها الأخير.

عندما أصيب أبي بوعكته الأخيرة، تنبَّهت لرائحة الموت. كانت تفوح بقوة من مسامات جلده. أخفيت دموعي. هرعتُ إلى بيتي. جلستُ على سجَّادة الصلاة. تضرَّعتُ إلى الله ألا يترك الموت يحرمني أبي كي أنعم بأبوَّته. أخرجَ الموت لسانه هازئاً كالعادة من أمنيتي المستحيلة. في ليلة مُبهجة، والناس منتعشون بنسماتها، انتزع ملك الموت روح أبي ومضى.

سقطتُ بعد موته في هوة الحزن. تلبَّسني القلق. جافاني النوم ليالي طويلة. أدمنتُ الحبوب المنوِّمة فترة. كان تكرار تجربة الموت مخيفاً. بتُّ أكره الموت من كل قلبي. أصرخ وحيدة في غرفتي: «من ستأخذ مني في المرة القادمة؟! ألم يكفكَ الأحباء الذين سرقتهم مني؟!».

في بعض الأحيان يتملكني الفضول، أتساءل... كيف هي هيئة ملك الموت؟! متى سيأتي إليَّ؟! لماذا خلقه الله؟! ألكَي يُعذبنا على هذه الأرض؟!

دمعتان ساخنتان تدحرجتا على صدغي. تنبهتُ إلى مرور الوقت؛ كانت الساعة تُشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل. تدثَّرتُ بغطاء سريري، تركتُ النوم يسلبني وعيي. ذلك المساء جاءني عماد. كان يلبس حلة بيضاء. صفحة وجهه تشعُّ منها الفرحة. ترتسم ابتسامة واسعة على ثغره. يحمل بين يديه قالب كيك شبيهاً بقالب «تورتة» العرس. وضعه على طاولة سفرة الطعام. قبَّلني على جبيني ومضى.

(٢)

راحت وحشة الفراق تنهش صدري. تفاقم إحساسي بالوحدة بعد سفر ابنتي وعد مع زوجها إلى بريطانيا لإكمال دراستهما العليا. لم يكن قرارهما مفاجئاً بالنسبة لي بل كان متَّفقاً عليه قبل زواجهما بأشهر. لم أعد أطيق الجلوس في البيت. أبقيتُ على برنامجي اليومي؛ أستيقظ كعادتي قرب الظهيرة، أمضي ساعة في النادي الصحي القريب من بيتي، أهدر دقائقها باللعب على بعض الأجهزة الرياضية وفي التنصُّت على ثرثرة عضوات النادي. واحدة تقصُّ على صاحبتها بصوت خافت ونبرة دلال مغامراتها الساخنة خلال رحلتها الأخيرة إلى باريس. أخرى تبثُّ شكواها لرفيقتها بنبرة ممزوجة بالقهر؛ كيف كانت صدمتها كبيرة لحظة اكتشفت خيانة زوجها مع أعزِّ صديقة لها. تخبرها عن وقاحته معها؛ قوله إنه إذا لم يعجبها الحال، بإمكانها أن تضرب رأسها بأقرب حائط. تسبُّه بحرقة لكونه لم يتسبب في دهس مشاعرها فحسب، بل كذلك دنَّس بفعلته أرضية الذكريات التي تجمعها برفيقة

طفولتها. ثالثة تحكي بصوت غاضب لصاحبتها عن ضبطها لزوجها مرات عدة يُغازل خادمتها الآسيوية. عن اضطرارها حتى الآن إلى إعادة ثلاث خادمات إلى بلادهن للسبب نفسه. كانت تقسم بأغلظ الأيمان أنها لن تُدخل خادمة إلى بيتها بعد اليوم. تَحضرُ صورة عماد في فكري. أترحَّم عليه. أتذكَّر كم كان نبيلاً في حبه.

يتملكني شعور بالغبن أحياناً. أسمع صوت رضاي يتكسَّر في أعماقي، غصَّة احتجاج تقف في حلقي كلما التقيتُ صديقاتي الحميمات الأربع. جميعهنَّ بلا استثناء صرن سيدات مجتمع ناجحات. ألوم أبي في سري. لماذا لم يدعني أكمل تعليمي؟ أوجِّه إصبع الاتهام إلى أمي لكونها لم تُبدِ اعتراضاً وقتها على قرار أبي بتزويجي باكراً. تزوجتُ قبل أن أحصل على شهادة الثانوية. بالكاد أعرف بعض الكلمات الإنكليزية التي تعلمتها أثناء دراستي القصيرة وبفضل جلوسي ساعات طويلة أمام التلفاز. استفدتُ كذلك من صديقاتي اللواتي تتخلل أحاديثهنَّ الكثير من الكلمات الإنكليزية. عندما ألتقي بهن يُداهمني شعور بأن عقارب الزمن قد توقَّفت بي. جميعهن بلا استثناء دخلن القفص بزيجات تقليدية، أو كما يسمُّونها زيجات «صالونات». رابحة غدت أستاذة علم اجتماع. تزوجت بدكتور في علم الاقتصاد. عواطف أصبحت مديرة مدرسة ثانوية، زوجها من عائلة معروفة يشغل منصب وكيل وزارة في إحد القطاعات الحكومية الهامة. فائزة صارت مديرة فرع لأحد البنوك النسائية وقد اقترنت

بطبيب تجميل مشهور تغصُّ عيادته يومياً بعشرات النساء المهووسات بإصلاح ما أعطبه الدهر. إيمان هي الوحيدة من بيننا التي لم تتزوج حتى الآن. سافرتْ في بعثة دراسية إلى الولايات المتحدة الأميركية وتخصَّصتْ في طب أسنان الأطفال. عندما عادت كانت في الثالثة والثلاثين من عمرها. جرفتها دوامة طموحها. هي في نظر الكثيرين عانس، امرأة مسكينة فاتها قطار الزواج. لديها اعتداد كبير بنفسها وحماسة لعملها لا تهدأ. تؤمن بأن الرجل ليس المصدر الوحيد لإسعاد المرأة، وبأن عوامل أخرى من الممكن أن تجلب لها السعادة. تُردد دوماً أنها ليست متعجِّلة على الارتباط. تعطي الغرب كمثل، وكيف أن المرأة هناك تعيش باستقلالية تامة. عندما نسألها بنبرة قلقة: وماذا عن الأطفال؟ ألا ترين بأن الأوان قد فات؟! ترد بثقة أن الله صانع مقدرات البشر. هو وحده من يُقرر إن كان سيُنعم عليها بالأمومة أو لا. ألوم نفسي حين تلسع الغيرة قلبي. أقاومها. ألجمها بقسوة. أوجِّه فكري صوب ابنتي وعد. أحمد الله على أنني لم أخرج من زواجي خالية الوفاض، بل بزهرة جميلة ملأت حياتي بعبقها الزكي.

واعدتُ صديقاتي على الالتقاء بهن مساء في مقهى «تياترو لاونج» الذي تمَّ افتتاحه في «تياترو مول». يقع المبنى بميدان شارع التحلية أمام مركز الحدائق والهدايا «فيفا». لفتت نظري لحظة دخولي اللوحات التي تُحيط به، والجامعة لمختلف مدارس الفن التشكيلي. لم أكن يوماً من هواتها، ولا أتذكَّر أني سعيتُ لحيازة أي منها. كانت

عواطف هي التي اقترحت أن نلتقي هناك بعد أن ظلَّت تتغنَّى بهدوء المكان وجمال «التابلوهات» المعروضة المرسومة بريشة فنانين وفنانات سعوديات. أبديت ملاحظة بأن المكان يغصُّ بالنسوة. علَّقتْ رابحة ضاحكة على المشهد قائلة: «يظهر أن النساء بتنَ يشعرن بالملل من أزواجهن! ألا ترينَ أن ظاهرة خروج الزوجات من دون أزواجهن قد تفاقمت في مجتمعنا؟».

ردَّت عواطف: «هذا لأن الرجال مشغولون طوال الوقت بتأمين لقمة العيش وتوفير حياة كريمة لأسرهم».

علَّقت إيمان: «لماذا لا تقولين إن هناك فجوة عميقة بين الرجل وزوجته؟ لا أعرف لماذا لا يُخصِّص الزوجان وقتاً للترفيه عن نفسيهما برفقة أطفالهما بعيداً عن مشاغلهما».

ردَّت فائزة هازئة: «أنت لم تجرِّبي الحياة الزوجية بعد! هل تعتقدين أن رجالنا يهدرون وقتهم معنا وأن ليس لهم شاغل سوى تلبية مطالبنا؟! أنتِ لا تسمعين من الزوج سوى «أف، تعبان، مرهق». وإذا لاطفك قليلا فهذا يعني أنه يريد ليلتها واجبه الزوجي منك. يقوم بذلك بأسلوب منمَّق ثم يُعطيك ظهره وينام، ويعلو شخيره في أرجاء الغرفة، من دون أن يُكلِّف خاطره سؤالك بلطف إن كنتِ قد وصلتِ معه إلى ذروة اللذة أو لا!».

قالت رابحة: «في البداية كان زوجي ينام معي كل يوم مرتين وأحياناً ثلاث مرات. نتفنَّن في تطبيق ما نشاهده من مشاهد ساخنة في أفلام الـ «سكس» التي يمده بها أصحابه بين حين وآخر. بعد عام من زواجنا بدأ يأتيني مرة في الأسبوع. اليوم، بعد مرور عشرين عاماً على زواجنا، صار لكل منا غرفة مستقلة. لا نمارس الجنس إلا كل ثلاثة أو أربعة أشهر. يأتي خجلاً مثل اللص إلى غرفتي بعد منتصف الليل ثم يعود متخماً إلى مخدعه. الرجل سبب تعاسة المرأة، وهناك رجال أولاد شرموطة».

قالت عواطف: «أتذكَّر أنني عندما بدأتُ أتجهَّز لعرسي، حرصتُ على أن يكون معظم «الجهاز» منامات نوم غالية الثمن. أقسم أنه بعد أعوام قليلة من زواجنا، لم يعد زوجي يُلاحظ إن كنتُ أرتدي منامة جديدة أو واحدة سبق لي ارتداؤها! لامبالاته أحبطتني. جعلتني أضنُّ بنقودي في اقتناء ثوب نوم باهظ الثمن. ما الفائدة ما دام لا يُعير اهتماماً لما ألبسه له ليلاً؟!».

علَّقت فائزة: «هل تصدِّقنَ إذا قلتُ لكُنَّ إن زوجي في واحدة من المرات ونحن نُمارس الجنس ناداني باسم إليسا المغنية من كثرة اشتهائه لها؟! لحظتَها ابتلعتُ الإهانة وتغاضيتُ عن تصرفه. أتدرون لماذا؟». أدنت رأسها منا وتابعت بصوت خافت: «... لأنني أنا أيضاً أتخيَّل نفسي نائمة مع راغب علامة لشدة انجذابي إليه. فلمَ ألومه على

إعجابه المفرط بأليسا؟! عموماً هناك نساء بنات قحبة أيضاً». توقَّفتْ عن الحديث. أدارت وجهها ناحيتي متابعة: «ماذا عنكِ يا صديقتي؟ كيف استطعتِ العيش وحيدة كل هذه السنوات من دون أن يُدْفِئ فراشك رجل؟! هيا، أصدقينا القول».

اختلطتْ ضحكات الجميع. قلنَ في صوت واحد: «نعم. نبصم بالعشرة على أنكِ فدائيَّة. تستحقين وسامَي الصبر والشجاعة من لجنة حقوق المرأة لصمودك كل هذه السنوات العجاف». حرَّكتُ أصابع يدي، قلتُ: «أدينُ لهنَّ بالفضل. لولاهنَّ لما استطعت الصمود أمام إغراءات الفحولة».

كانت إيمان صامتة. لم تُشارك في النقاش. بدأ الضيق يرتسم على معالمها. أقسمت فجأة على مغادرة المكان إن لم نكفَّ عن هذا الحديث. تبادلنا النظرات بخبث. أدرنا الدفة صوب مواضيع أخرى. قرب منتصف الليل ودَّعنا بعضنا ومضت كل منَّا إلى بيتها.

في زياراتي العائلية، يتملَّكني الغيظ حين أسمع واحدة من قريباتي تتباهى بفرح بأن زوجها دسَّ البارحة جسده في مخدعها، مشيرة بميوعة إلى شعرها المبلل من غُسل الجنابة. أحاول إدارة سحنتي المصفرَّة. في لحظة صفاء، سألتني فائزة بصوت تصبغ عليه الجديّة «صديقتي... هل بالفعل يُغنيك الإصبع عن أحضان رجل؟! أنفاسه؟! تدفُّق مائه الدافئ في عمق رحمك؟!».

«ممارستي للعادة السرية ساعدتني على معرفة مكامن أنوثتي. التقرُّب عن كثب من جسدي مهَّد الطريق أمامي لاكتشاف مواطن خفية أوصلتني إلى ذروة اللذة. مواضع لم يطأها زوجي معي».

عند رجوع فائزة إلى جدَّة، في واحد من أسفارها إلى فرنسا، فاجأتني بهدية مغلَّفة بورقة فاقعة الألوان. قالت لي مازحة: «أحضرتُ لك عريساً». فتحتُ العلبة على عجل. كان بداخلها قضيب بلاستيكي وردي اللون يعمل بشحنة البطاريات. لم تدع لي فرصة للتعليق. غمزت لي بعينيها مسترسلة: «بإمكانك عقد قرانك عليه الليلة. لم أجد هدية أجمل منها أقدمها لك. لقد أخفيتها تحت قميصي حتى لا يراها موظف المطار عند تفتيشه لحقيبتي فتصبح «فضيحتي بجلاجل» أمام زوجي. لقد جازفتُ بحياتي لأنك غالية عندي يا فطوم».

حال وصولي إلى البيت، أغلقتُ باب حجرتي بلهفة. رميتُ نفسي على فراشي. ليلتها مارستُ الجنس عدة مرات مع رفيقي الاصطناعي. ظللتُ شهوراً أعامله بحنو. أغسله. أطهِّره بالـ «ديتول» بعد كل استخدام. أعيده بعناية إلى علبته. أدسُّه بحذر في دولاب ملابسي خوفاً من أن تلمحه ابنتي أو أن يقع في يد الخادمة. بعد أشهر من عناقي له، عافته نفسي. شعرتُ بحنين جارف إلى إصبعي. اكتشفتُ أن هناك عشقاً خفياً يجمعنا.

كنتُ قد تحجَّبت أثناء شهور العدَّة. في أول خروج لي من البيت بعد انتهائها، أحكمتُ الوشاح على رأسي. حرصتُ على ألا أدع شعرة تفلت من تحته. أخذتني أمي في أحضانها لحظة رأتني قائلة بغبطة: «الحمد لله لأنه هداك إلى الحجاب». أعتدتُ تخصيص عطلة نهاية الأسبوع لزيارة الأهل والأقارب والصديقات، وتقسيم بقية أيام الأسبوع بين حضور جلسات تحفيظ القرآن التي تعقدها أسبوعياً إحدى الداعيات المعروفات في منزلها، وبين حضور المحاضرات الدينية التي كانت تقيمها زوجة عمي في بيتها. مضمون المحاضرات كان أغلبه يدور حول عذاب القبر والعقاب الأخروي، والتذكير بقائمة المحرَّمات التي يجب على المرأة المسلمة تجنبها لتظفر بالجنة، والتشديد على أهمية غطاء الرأس ونقاب الوجه. حول وجوب طاعة الزوج طاعة عمياء انصياعاً للحديث النبوي الشريف «لو أمرتُ أحداً أن يسجدَ لأحدٍ لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها». أبتسمُ أحياناً في سرِّي حين تخطر صديقتي فائزة على بالي. تعليقها على فحواه: «هذا الحديث جعل الرجال يتمادون في غيِّهم. أصبحتُ أرتاب في صحَّته».

عند ممارستي للعادة السرية، وبعد أن أفيق من غيبوبة النشوة، أغتسل واسترخي في فراشي مخدَّرة، وأتساءل في كل مرة عما إذا كان ما أقوم به حلال أو حرام. لو كان حراماً، لمَ وضع الله غريزة الجنس في الكائنات كافة؟! هل يُمارسه البشر من أجل امتداد ذريتهم على الأرض كما يؤكِّد شيوخ الدين في كل مناسبة؟! أجيب نفسي:

الله أعلم بأحوال عباده. هناك بلا شك حكمة إلهية. ربما لهذا يتغاضى بقصد عن زلّاتنا. عاشرتُ رجالاً كثيرين في دنيا خيالي. كل ليلة أصطحب غريباً إلى فراشي وأمارس معه مختلف أوضاع العهر. مارستُ الجنس مع فنانين أجانب مثل «جوني ديب» و«براد بت» و«توم كروز» وغيرهم. كنتُ أسأل ابنتي عن اسم كل بطل يروق لي في الأفلام الهوليودية. تنظر إليَّ بريبة. تُجيبني ببرودة: «هذا النجم فلان وذاك علان». وصل بي الأمر إلى أن أطلب إليها أن تكتب لي أسماءهم بالإنكليزية، أترجَّاها أن تطبع لي صورهم من الإنترنت. كانت تتململ. تتأفف. تعمل في النهاية ما أطلبه منها على مضض. أحشر فرحة صورهم بين تلَّتَي صدري. أتأوَّه كل ليلة في أحضان من يقع عليه اختياري. أجعله يعتصر أنوثتي بإباحية مطلقة إلى أن أُفرغ شحنتي المكبوتة. لم تقتصر علاقتي على النجوم الأجانب، بل تعدَّتها إلى فنانين عرب أيضاً. همْتُ حباً بالفنان أحمد زكي. تولَّعتُ بأحمد عبد العزيز. سحرتني ابتسامة جمال سليمان.

أثناء حضوري محاضرة دينية، أتمنى لو أملكُ الجرأة لطرح السؤال الذي يؤرِّق فكري على واحدة من الداعيات. سؤال حول حقي في ممارسة العادة السرية. إن كانت تدخل في دائرة المحرم أو المباح. كان حيائي يمنعني. في إحدى المرات استجمعتُ شجاعتي. قررتُ سؤال الداعية بعد أن تفرغ من إلقاء محاضرتها. كان مضمون المحاضرة يومها يدور حول العلاقة الجنسية بين الزوجين. قاطعَتها

إحدى الحاضرات بسؤالها: «هل أدَعُ زوجي يلهو بصدري؟ هل من حقِّه أن يرضع حلمتَيَّ؟».

تجهَّم وجه الداعية. أجابتها بنبرة جافة: «هذا الموضع خلقه الله من أجل أطفالك وليس لكي يعبثَ به رجلك».

سألتها أخرى:

- «هناك سؤال أشعر بالحرج من طرحه.

- لا عليكِ، لا حياء في الدين. من حق إخوتك في الإسلام أن يتفقَّهنَ في أمور دينهن.

- زوجي يُلحُّ عليَّ لكي... ذَكَره في لحظات نومه معي لأثيره أكثر. عندما رفضتُ أقسمَ أن يتزوج بأخرى تمنحه ما يُريد. أنا حائرة، لا أعرف ما أفعل!

- مطلبه يدخل ضمن دائرة المحرَّمات.

- لكن يا أستاذة لا استطيع تحمُّل اقتران زوجي بامرأة أخرى، إن صدق في قسمه!

- أختي الكريمة، عذابات الدنيا أهون بكثير من عذابات الآخرة. كما أن ثوابك عظيم عند الخالق».

سألتها ثالثة:

- «أنا شابة مُطلَّقة منذ عدَّة سنوات، ولم يأتني نصيبي إلى الآن. ماذا أفعل للتنفيس عن رغبتي؟!

- استعيني بالصوم والصلاة وداومي على قراءة القرآن».

غُصتُ في مقعدي. كأن لساني التصق بسقف حلقي. كتمتُ سؤالي في سرِّي. نقلتُ حيرتي لصديقتي رابحة. أجابتني ضاحكة: «لا عليكِ. لو كان التخيُّل حراماً، لأوقع القضاة عقوبة الزنا بنصف نساء الأرض لكونهن يتخيَّلن رجالاً في سرائرهن وهنَّ في أحضان أزواجهن. لا تعتقدي أن الرجل وحده من يتخيَّل أخريات. بعد سنوات من الزواج تتآخى الأجساد يا صديقتي. تفتر الرغبة. لذا لا بد من مُحفِّز خارجي يبعث الحرارة والدفء في الأجساد التي قتلها صقيع الروتين. البحث عن لحظاتٍ حميميَّةٍ في الفراش تُجبر النساء أيضاً على مضاجعة رجال غرباء في مخيلتهن. لكن هناك خطوطاً حمراء لا تستطيع المرأة تجاوزها؛ الخوف من عقاب ربها، والحفاظ على أسرتها من التفكك، ونظرة المجتمع لها إن فُضِحَ أمرها. العيش في دنيا الأحلام أقصى ما يحق للمرأة بلوغه. الرجال أوفر حظاً منا، أتدرين لماذا؟ لكونهم قادرين على إقامة علاقات محرَّمة على أرض الواقع من دون أن يُحاكمهم المجتمع، أو ينصب لهم المشانق بسبب نزواتهم الطائشة! يظهر يا صديقتي أن الحرام له نكهة فوَّاحة، رغم عواقبه الوخيمة الإلهية الصنع!».

قمتُ بأداء واجب العزاء لواحدة من معارفي. قام زوجها يتوضأ لأداء صلاة الفجر. سمعته يسعل. تناهى إليها صوت ارتطام شيء بالأرض. قفزت من سريرها. وجدته مُلقى على بلاط الحمام والزبد يسيل من شدقيه. صرخت. أدركتْ أنه في النزع الأخير. أقسمتْ على أنها لن تكون لرجل بعده. اختلستُ النظر إليها وأنا جالسة في صف المعزِّيات. كانت متَّشحة بثوبها ووشاحها الأبيضين، وقد علا نحيبها. شعور خبيث ممزوج بالارتياح ملأ دواخلي؛ أن هناك امرأة غيري تسللت برودة الوحدة إلى فراشها. سرعان ما طردته من ساحة فكري. ما إن مرَّت سنة على وفاة زوجها حتى سمعتُ أنها ستقترن برجل يصغرها بسنوات. شعرتُ ببركان الغيرة يعاود الغليان في أعماقي. كيف تتجرأ هذه الأربعينية على الزواج مرة ثانية ولديها ثلاثة أبناء في سن المراهقة؟! لقد ترمَّلتُ وأنا في نهاية عقدي العشرين، ومع هذا رفضتُ وقتها كل من سعى ورائي لإرواء ظمئه بمستند شرعي.

التقيتُ بها صدفة في إحدى زياراتي العائلية. لم أعرفها. بدت أكثر شباباً، ووجهها ينزُّ نضارة. مالت عليَّ قائلة: «نصيحة من امرأة مجربة. لا تكترثي لكلام الناس. ارتبطي بشاب يصغرك سناً لتُجددي به صباك. لماذا من حق الرجل أن يتزوج بفتاة بكر تصغره بعقود بحجة أنه يقتدي برسولنا محمد وقصة زواجه الذائعة الصيت بالسيدة عائشة؟! لماذا يقولون بسخرية في مجتمعاتنا عن المرأة المتوسطة عمراً والتي تقترن بشاب يصغرها سناً إنها مُتصابية تُريد أن تعيش زمانها وزمان

غيرها؟! أليس من حقنا نحن النساء أيضاً الاقتداء بالسيدة خديجة؟! ألم تتزوج الرسول وهو يصغرها بخمسة عشر عاماً؟! لا تقولي: لكنها أم المؤمنين!». ثم كركرت متابعة وهي تغمز بعينها: «وقتها لم تكن نبوَّته قد ظهرت بعد. لقد راق لها كرجل. أليس كذلك؟!». لم أجبها. رميتها بنظرة نارية. عدتُ إلى البيت ومئات الأفكار تتخبَّط في رأسي. شعرتُ بحاجتي إلى قرص منوِّم.

هو وهي

من أنا... خلِّي السؤالات
أنا لوحة تبحثُ عن ألوانها
موعداً... سيدتي! وابتسمتْ
وأشارتْ لي إلى عنوانها...
وتطلَّعتُ فلم ألمح سوى
طبعة الحمرة في فنجانها

قصيدة «في المقهى»
نزار قبَّاني

مَن هذه المرأة المتورِّدة كالشفق التي تدخل بفستانها السماوي إلى المقهى؟! هكذا قال لنفسه وهو قابع أمام طاولته المطلَّة على صخرة «الروشة» في بيروت. ساعده الحظ بجلوسها إلى الطاولة المقابلة له. ظلَّ نظره متعلِّقاً بها وهو ينفث دخان نرجيلته. أخذ يراقبها بفضول من خلف زجاج نظارته الشمسية السوداء. لم تلحظ هيئته في بداية الأمر. كانت عيناها منهمكتين بملاحقة الأمواج التي أخذت تلثم بشبق أسفل الصخرة مرات ومرات من دون أن تعبأ بنظرات الفضوليين إليها، مُحْدثة هديراً ناعماً يحرك المشاعر الخامدة.

تنبَّهت لوجوده بعد مرور أكثر من عشر دقائق على جلوسها. حاولت تجاهل تلك العينين الجريئتين المتسلطتين عليها، المتواريتين خلف النظارة. شيء ما مبهم شدَّها هي الأخرى نحوه، دفعها إلى استراق النظر إليه من تحت زجاج نظَّارتها الشمسية المُحاطة بإطار برونزي. كانت الشمس قد بدأت تتثاءب ضجراً، معلنة رغبتها

في لملمة خيوطها للذهاب إلى الناحية الأخرى من العالم. أخذت أشعتها الحمراء تعكس ظلالها على سطح البحر فتزيده جمالاً. ظلَّت تترنَّح إلى أن سقطت كلياً بثقلها خلف البحر من دون أن تُخلِّف أثراً وراءها. الطقس ربيعي تُحرِّض نسائمه العليلة على انفلات النفوس من تحفُّظها. الهواء بدأ يميل إلى البرودة مع سويعات الأصيل. راح يُشاكس صفحة وجهها، يُغازل خصلات شعرها مثل عاشق قرر فجأة نفض خوفه والإفصاح عن مدى ولعه بمحبوبته. كلما مر الوقت ارتفعت حُمَّى رغبته في التعرُّف إليها، معرفة كنه هويتها، من أي بلد هي، خليجية أو من جنسية عربية أخرى! عندما خلعت نظارتها بان له رسم عينيها. كانت أنوار المقهى تُلقي ضوءها في أرضيتهما فتُضفي عليهما مزيداً من الصفاء. أقسم على أنه لم يرَ في حياته فصَّين بهذه الجاذبية. تركت طاولتها لدقائق. سمعها تسأل النادل عن دورة المياه. أخذ يتبعها بنظراته، يتأمل انسيابية ظهرها. كان فستانها «الجرسيه» الملتصق بجسدها يفضح تفاصيله بيسر، مسربلاً إلى ما بعد ركبتيها، يصل منتهاه إلى منتصف ساقيها، مُظهراً روعة ربلتيهما. لم يحسَّ بخيبة أمل كبيرة لكونها لا تحظى بمؤخرة كبيرة. لم يهتم لعدم كون بشرتها بيضاء وردية. كان هناك نداء غامض ينبثق من حوافي جسدها يحثه على التغاضي عن الصفات التي تخلب لبَّه في المرأة. عند عودتها إلى مقعدها، أخذ يسترق النظر إلى ثدييها الكرويين اللذين أخذا يتأرجحان مع مشيتها. من دون أن يدري، وجد نفسه يبعثُ لها

بابتسامة خفيفة. لم يصدِّق عينيه حين وجدها تُبادله الابتسامة. سألها بإشارة من يده إن كان بإمكانه الانتقال إلى طاولتها. أومأت برأسها موافقة. قفز من مكانه بخفَّة. سحب المقعد المواجه لها. حيَّاها بلطف. ردَّت تحيته بصوت ناعم. أشار بيده للنادل. طلب إليه جمع حساب الطاولتين في فاتورة واحدة. قال موجهاً كلامه إليها:

- «اسمي جعفر. ما أسمك؟

- فاطمة.

- الله! اسم فاطمة من أحبِّ الأسماء إلى قلبي. أختي اسمها فاطمة أيضاً.

- لا أحبُّ اسمي لكونه من الأسماء القديمة. تمنيتُ لو سمَّاني أبواي ريم، لينا، دينا، أو غيرها من تلك الأسماء الدارجة اليوم.

- اسمك مبارك. يكفي أنك تحملين اسم البتول، سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء، أم الإمام الحسين سيد الشهداء».

أشرق محياها بابتسامة عذبة.

امتدَّ بهما الحديث إلى أمور شتى. لم يشعرا بمرور الوقت. كان صوت فيروز يصدح في أرجاء المقهى. أضفت أغنيتها جواً حالماً، «لا تسألوني ما اسمه حبيبي، أخشى عليكمْ ضوعةَ الطيوبِ...»

سألها: «ما رأيك في أن نتمشَّى على الكورنيش؟».

وافقت. سارا صامتَين. حجبت عتمة الليل امتداد البحر. ظلَّ هدير موجه يُصدر موسيقى شجية، غير عابئ بالظلمة الكالحة التي افترشت سطحه. خفَّ ضجيج الشارع. عدد قليل من المارة كان يتمشَّى بالقرب منهما. أحسَّا بنداء ملحٍّ يتحرك في أحشائهما يحثهما على التقرُّب من بعضهما. خدر لذيذ سرى في شرايين جسديهما. داهمهما شعور بأنهما ليسا غريبين عن بعضهما. كانت تتساءل في داخلها: «كيف تجرأتُ هكذا بكل بساطة على التحدث مع رجل غريب لم ألتقِ به إلا من ساعات قليلة والتسكُّع معه على الرصيف؟!». اعترتها فجأة حالة من فقدان الذاكرة. نسيت ابنتها، وضعها، ظروفها الأسرية. كأن يداً مجهولة اخترقت عقلها ورسمت تعاويذ سحرية عليه محت بها كل ما يمتُّ بصلة إلى ماضيها.

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة مساءً حين أوصلها إلى باب فندق «الكومودور» الواقع وسط المدينة. سألها وهو يمدُّ يده لوداعها إن كانت من اللواتي اعتدنَ النوم حتى الظهيرة، أو من اللواتي يحرصن على استنشاق نسمات الصبح الندية. عندما لمح غيمة تساؤل في عينيها، تابع قائلاً: «أريد أن أقضي معك نهار الغد بكامله. هل لديك مانع؟».

أضاءت ابتسامة طفولية صفحة وجهها: «سأنتظرك غداً عند الثامنة صباحاً».

دخلتْ غرفتها. أخذت تتمايل نشوةً وهي تخلع ملابسها. تُدندن أغنية كارول سماحة «معرفش جرالي إيه. أنا بحلم ولا إيه. واليوم ده حلو ليه. ليه وكأنه عيد. ده عمري النهار ده. بس اتولد عمري. وأنا حبيت السهر. علشان بشوف قمري. ياما ليالي ياما. وإنت مش معايا. أنا كنت بحلم بيك معايا. دلوقت وإنت هنا معايا. حَحتاج لإيه وإنت هنا...». تنهدت بحرارة. آه! ما أجمل طعم الحب! أي حب؟! رفعت حاجبيها مستنكرة. اندهشت لأحاسيسها المفاجئة. هل جُننتُ؟! أمن المعقول أن أحبَّ رجلاً من اللقاء الأول؟! هذا هراء! لقد تعدَّيتُ هذه المرحلة منذ سنوات طويلة. صحيح أنني لم أنهل من سنوات مراهقتي، لكنني في عمر لا يسمح لي بالتورُّط في مغامرات مجنونة. هزَّت كتفيها. فليكن ما يكون. أريد أن أعيش حياتي بطريقة مُغايرة قبل أن تُكتب عبارة الفصل الأخير على باب عمري. «هل فهمتِ يا فاطمة؟». ردَّدتْ بإصرار وهي تتأمل باسمةً انعكاس صفحة وجهها في المرآة.

* * * * *

استيقظتْ عند السابعة. قلَّبت حوائجها. وقع اختيارها على بدلة رياضية عشبية اللون، منقوش عليها من الخلف بأحرف فضية ماركة Guess التي تحبها. لبست حذاءً رياضياً أبيض. عقصت شعرها على شكل ذيل حصان. رسمت عينيها بخط من «الآي لاينر» الأسود.

صبغت شفتيها بإصبع روج وردي اللون يتناسب مع لون ردائها من ماركة MAC التي تُفضِّلها. تعطَّرت بـ Dolce & Gabbana، عطرها المفضَّل. بدت أصغر سناً.

كان ينتظرها في بهو الفندق. لم ينتبه بدايةً لوجودها؛ كان منهمكاً بقراءة صحيفة الشرق الأوسط.

«صباح الخير».

التفتَ صوبها، قفز من مكانه، أطلق من فمه صفَّارة خفيفة. تأملها بانبهار قائلاً: «صباح النور يا صاحبة أجمل عينين عربيتين. كم أنتِ بهية في طلعة النهار!».

سألته بغنج:

- «إلى أين ستصحبُني؟!

- سنذهب أولاً لتناول الإفطار في مكان أثري بالغ الروعة، كل شيء فيه ينطق بالأصالة. أنا واثق من أنه سيحظى بإعجابك».

أوقف سيارة أجرة، طلب إلى السائق أن يذهب بهما إلى «سوق الذوق». جلسا في مطعم عتيق يقف مبناه على تل عال. كان المنظر بديعاً. الأشجار المورقة تشقُّ طريقها بين الصخور. من البعيد بدا المدرَّج الروماني، ومن الجهة الأخرى كانت بيروت تطلُّ من الأسفل بمبانيها المتباينة. أخذت تُطالع المشهد بانبهار، تلتهم إفطارها

بشهيَّة مفتوحة. راح يُراقبها من طرف عينيه وهي تقضم بأسنانها صفائح الجبن بالزعتر. عيناه تُبحران في نهرَي عينيها. ما إن فرغا من ارتشاف الشاي حتى سحبها من زندها. أخذا يتجولان في أرجاء المكان. أبتاع لها وشاحاً مطرزاً بخيوط يدوية الصنع. عندما حاولت الرفض، قاطعها قائلاً: «اعتبريه تذكاراً بسيطاً مني».

بدأ المكان يعجُّ بالسياح، ففضَّلا الانزواء قليلاً في أحد المقاهي الصغيرة المنثورة في المكان لشرب فنجان من القهوة. غاصا في مقعديهما.

قال وهو يُطيل النظر في ملامحها:

- «احكي لي عن حياتك.

- أنا امرأة عادية. عائلتي من جدَّة».

ضحك معلِّقاً: «من أهل الرخاء والشدة كما يقولون عنها».

ابتسمت بمرارة. أخذت تقصُّ عليه بنبرة موجعة تفاصيل زواجها. ابنتها. وحدتها الطويلة.

«ألهذه الأسباب تطوف سحابة حزن في أرضية عينيك؟».

ارتسمت تعابير الضيق على وجهها، قالت: «لا أحبُّ أن يُلاحظ أحد هذه السحابة القاتمة. من كثرة سماعي هذه العبارة بتُّ أنفر منها. هناك مواقف كثيرة في حياتنا تُقطِّع أوصالنا. نتناساها مع مرور

السنين، لكنها تترك ندبة على جدران قلوبنا. تنعكس من دون قصد على صفحة وجوهنا، وتجدُ لها مسكناً في أرضية عيوننا».

ردَّ بصوت مليء بالحرارة: «يجب أن تكوني سعيدة بشعاع الحزن الرابض في عينيك. أتعرفين لماذا؟ لكونه جعل لبريق عينيك وهجاً أخَّاذاً وخصوصيةً بديعة. قلَّة من النساء يملكن شفافية في أرواحهن يتراقص ضوؤها على صفحة وجوههن وفي لمعة عيونهن».

طفت ابتسامة خفيفة على ثغرها. قال:

- «أخبريني، هل أتيتِ إلى بيروت بمفردك؟».

- لا. جئتُ بصحبة صديقة لبنانية أعرفها منذ سنوات تُقيم في جدَّة مع زوجها وأبنائها. ماذا عنك؟

- أحب بيروت في هذا التوقيت، إذ تخفُّ فيها الرطوبة وتكون خالية تقريباً من السياح العرب الذين تجدينهم يملؤون ساحة السوليدير وجونيه والحمرا في ذروة الصيف. عازب. سأدخل سنِّي الحادي والثلاثين في مستهل الشهر القادم. تخرَّجتُ من جامعة البترول والمعادن قسم هندسة صناعية. أعمل في شركة «أرامكو». أهلي من محافظة القطيف».

شردت فاطمة بفكرها. أبحر بها مركب ذكرياتها صوب البعيد. دمعت عيناها. قررت هتك سرِّها أمامه: «هل تُصدِّقني لو أخبرتك بأنك

أول طارق أسمح له باقتحام حياتي، وبأنك أول غريب أخرج معه وأجالسه في مكان عام؟ لقد عانيتُ طويلاً. عشتُ شبابي في وحدة موحشة تعبتُ من عدِّ أيامها. لا تعتقد أنني نادمة على سنوات عمري التي ولَّت إلى غير رجعة. ابنتي هي كل حياتي وسعيدة لأنني وهبتها إياها».

سكب كل منهما نظراته الدافئة في عينَي الآخر. اكتشفا في تلك اللحظة أنهما محظوظان عندما تعثَّرت أقدامهما في طريق بعضهما.

عاد لسؤالها: «هل جرَّبتِ ركوب «التليفريك» من قبل؟». هزّت رأسها نفياً. طلب إلى السائق الذي كان ينتظرهما أن يقلَّهما إلى محطة «التليفريك». لم تدرِ كيف تقفز إلى داخل المقصورة. تعالت ضحكاتها. فتنته رنَّاتها. رفعها بحنو بين ذراعيه. أحسَّ برمَّانتَي نهديها تحكَّان صدره. كان الطقس غائماً. منظر الجبال المكسوة بالعشب الأخضر بدا بديعاً، يُشجِّع المحبِّين على الغرف من مباهج الدنيا. شعرت بدوار الارتفاع. مالت برأسها إلى الوراء. ربَّت بيده على ظاهر كفِّها. ابتسمت. تشاغلت بمتابعة المشاهد المتلاحقة من حولها. تركت يده تتخلل أصابعها. شعرت بقلبها ينتفض مثل طير صغير يتعلَّم الطيران بجناحيه للمرة الأولى. كأنها عصفورة وجدت أخيراً عُشَّاً دافئاً تحتمي فيه.

بدأت زخّات المطر بالتساقط. رفع طرف الجاكيت الجلدي الذي كان يرتديه. طلب إليها الاحتماء تحته إلى أن يدخلا المطعم. ألقت نظرة على ساعة يدها. الثانية بعد الظهر.

- «مرَّ الوقت سريعاً! الطقس أشعرني بالجوع، ألا تشعر به مثلي؟

- بلى. اسمعي، هذا المطعم يُقدِّم «ستيك» مشوي على الفحم رائع الطعم. هل تثقين بذوقي؟».

ابتسمت قائلة: «إلى حد ما».

جلسا هذه المرة متجاورَين. كانت أغنية شيرين تصدح في المكان: «كان فين هواك من بدري. يا حبيبي وكل ده فين. ده أنا من قبلك أنا عايشة مع العايشين. بكلِّم نفسي من الوحدة بقالي سنين. وأنا فى ضيقتي مكنتش عارفة أشكي لمين. ودلوقتي ولا بعمل حساب بعدين. ودلوقتي عرفت ابدأ حياتي منين. بكلمة منك عرفت دنيا معرفهاش. عشان خاطرك بحب حاجات محبتهاش. ولو تندهلي مستناش. بكلمة منك لاقيت كل اللي مش لاقياه. ولو فى حد زعلني أنا مسمحاه. ولو فى جرح أنا حَنساه».

سرحتْ في الأغنية. نكأتْ الكلمات جراحها. اندلقت داخل ساحة فكرها كل محتويات حياتها. هل ستحكي لابنتها عن هذا الرجل؟ هل ستُبارك ابنتها هذه العلاقة؟ من يدري! ربما القصة بأكملها ستنتهي

بعودتها إلى جدَّة. آه! ما أجمل الإحساس بالحب! اقتحم شرودها صوته قائلاً:

- «إلى أين وصلتِ؟! هل من الممكن أن تأخذيني معك؟

- من الصعب أن أصحبك إلى المكان الذي كنتُ فيه، أجابته بنبرة تقطر أسى.

- جرِّبي! ربما أخيِّب توقعاتك المتشائمة».

نسمة عابرة داعبت خصلات شعرها. لاحظ أن خصلة رقيقة التصقت بطرف صدغها الأيمن. أحسَّ كأنها تتحداه بقدرتها على ملامسة صفحة وجهها من دون تحفُّظ. مدَّ يده. أزاحها بلطف إلى خلف أذنها. ابتسمت. تأملته صامتة. سدد إليها نظرات ثاقبة. تمنَّى لو تمادى أكثر، لو يقهر تردده، لو يحيطها بذراعيه ويضغط بأنامله على بلاطة ظهرها. كان وهج الرغبة يطلُّ بقوة من شرفتَي عينيه.

أرخت أهدابها قائلة: «جعفر، أريد أن أعترف لك بشيء. لقد تعوَّدتُ كل ليلة، في مخيلتي، اصطحاب رجال غرباء إلى فراشي. هل تصرُّفي فيه خرق لقانون الحياء؟ هل عادتي التي استحليتها سنوات طويلة فيها شيء من العهر الآدمي؟».

قهقه قائلاً: «لو سمعكِ رجل خبيث النيَّة لرمقك بنظرات فيها الكثير من التجنِّي. احمدي الله على أنك قابلتِ رجلاً نزيه المشاعر

صافي السريرة. أسمعي سيدتي، أنا لا أعبأ برجالك الذين تناوبوا على جسدك في لياليك الوهمية. يكفيني أنني الرجل الوحيد الذي جذبك إلى دنيا الواقع». توقّف فجأة عن الكلام. دلق نظراته الولهة في بساط عينيها متابعاً بنبرة رخيمة: «فاطمة، هل تتزوجينني؟».

رفعت حاجبيها. شعرت بيديها ترتجفان، بشفتيها ترتعشان، بضربات قلبها تتسارع:

- «أنتَ لا تعرفني! قرار الزواج لا يتم بين اثنين بهذه السهولة!

- عندما رأيتك للمرة الأولى، أحسستُ بأنك قريبة مني إلى درجة أنني لم أتردد لحظة في الإفصاح عن أمنيتي بأن تكوني شريكة حياتي. قولي نعم وسأعقد عليك في التو واللحظة».

حاولت لملمةَ اضطرابها الذي تبعثر على مرأى منها، مُداراةَ فرحتها التي أخذت تتراقص طرباً في أعماقها. انتابها فجأة عارض خوف. كيف ستسمح لرجل بأن يتقاسم معها، من دون قيد أو شرط، تفاصيل حياتها بعد أن صاحبت وحدتها كل هذه السنوات؟ طلبت إليه أن يُحدِّثها أكثر عن نفسه، عن أسرته. ابتسم ابتسامة صافية وقال: «ماذا تريدين أن تعرفي؟ لحظة التقيتكِ حرصتُ على أن أكون كتاباً مفتوحاً. أنا من عائلة الباقر، من الأسر الشيعية المعروفة بالقطيف و...».

قاطعته بنبرة جزعة: «ماذا؟! أنتَ شيعي؟! لماذا لم تُخبرني بهذا الأمر عندما تقابلنا البارحة؟!».

ازدرد إهانتها:

- «أصدقيني، هل يُشكِّل هذا الأمر أهمية لديك؟

- حتّى لو لم يكن، هل تعتقد أن أسرتي السنية ستُرحِّب بسهولة بفكرة زواجي من شيعي؟!

- أعتقد يا فاطمة أنك في مرحلة عمرية ناضجة، تستطيعين اتخاذ قرارات واعية فيما يخصُّ حياتك. ثم لماذا نُقحم مذهبَينا في توجيه بوصلة علاقتنا؟!».

قطع حوارهما وصول النادم بأطباق الطعام. انشغلا بتناوله من دون أن ينبس أحدهما ببنت شفة. كانت تعابير الخيبة ترتسم على محياهما. ظلا على هذه الحال قرابة الساعة. أبدت رغبتها في العودة. نفح النادل الحساب. غادرا المكان تُظلل خطواتهما غيومُ الانكسار.

ظلَّت صامتة طوال الطريق. قطع صمتها بسؤاله: «سأذهب إلى مكتبة أنطوان لشراء بعض الكتب. هل تُفضِّلين مرافقتي، أو تحبين أن أوصلك إلى فندقك أولاً؟».

لمحت بريقاً من الرجاء ممزوجاً بالاستعطاف ينبثق من بؤبؤَي عينيه. أعلنت له موافقتها على اصطحابه. طلب إلى السائق بنبرة

فرحة أن يقلّهما إلى شارع الحمرا. دخلا إلى المكتبة. سألهما البائع عن نوعية الكتب التي يرغبان في شرائها. أجابه جعفر بأنه يُفضِّل التجوُّل بين الرفوف واكتشاف الجديد بنفسه. بدأت فاطمة تتلفَّتُ من حولها. سمعها تسأل البائع عن قسم المجلات النسائية. أنهمك جعفر في تصفُّح الكتب. وضع ما أراده في سلة صغيرة. سأل فاطمة إن كانت قد اختارت لنفسها شيئاً. أشارت بيدها إلى مجموعة من المجلات. نفح البائع قيمتها. كانت الساعة تُشير إلى الثامنة حين وقفت بهما السيارة أمام فندق «الكومودور». كانت متعبة. شكرته بصوت خامل على الساعات التي قضياها سوياً. مدَّ يده، أخرج من أكياس الكتب واحداً، ناولها إياه قائلاً: «أقرئيه على مهل». أخذته ومشت بخطوات بطيئة باتجاه باب الفندق. نادها. أدارت وجهها ناحيته. قال بصوت عال: «فكِّري جدِّياً في عرضي». ابتسمتْ، غابت في الداخل.

أنا

أنا عمرٌ بلا شباب
وحياةٌ بلا ربيع
أشتري الحبَّ بالعذاب
أشتري فَمَنْ يبيع ؟!

قصيدة «يوم بلا غد»
كامل الشناوي

أشعر بخدر لذيذ يسري في شراييني. كان يوماً رائعاً. أبواي راضيان عنِّي بالتأكيد لكوني التقيتُ جعفر، ولم يزل في تربة عمري نبتة مُخضرَّة تهبني الحياة. قررتُ أخذ حمام دافئ. تركتُ صنبور الماء يتدفق على شعري. يُدغدغ جلدي. استرخت عضلاتي كلها. تمطَّيتُ في فراشي. حشرتُ وسادتي تحت رأسي. أخذتُ أتصفَّح المجلات التي أشتراها لي جعفر. وقفتُ عند نص شعري جميل، كاتبته مُثيرة للجدل دوماً:

«هذا المساء. اشتهيتُ المسامرة مع أرضيَّة ذكوريَّة. في ممارسة فطريتي على أرصفة الهوى. أذبتُ أسوار جمودي. أرهفتُ السمع لعربدة الليل الثمل. الصارخ ضجراً من حرمان الصمتِ. فيضان الأنثى يتدفق دافئاً في شرايين جسدي. استرقتُ النظر من ثقوب أنَّاتي إلى وميض ملامحي. جذبتُ خصلات شعري. سحقتها بين أناملي.

أفقتُ من ضجيج تأملاتي. دارت عيناي في جدار العتمة. صفعتني سياط الوحدة. هزَّتني وحشة المكان»[1].

سرحتُ في عباراتها. كأنها تصف حالي. تُبرهن أن هناك أخريات يزعقن في أواخر الليل. يسعيْنَ خلف ونيس يحقن الدفء في شراييهنَّ المتعطشة. شرد فكري في جعفر، في تفاصيل لقائنا منذ بدايته. في انجذابي إلى هيئته الرجولية. في إعجابي بطلَّته. راق لي شاربه ولحيته الخفيفان. أحببتُ الشيب الذي لفح شعر رأسه مبكراً فزاده وسامة، سماره الحنطي، قامته المربوعة، ساعديه المفتولين، رونق شبابه. يا إلهي! ما الذي أصابني؟! كأن الزمن عادبي سنوات طويلة إلى الوراء. كأنني مراهقة في الخامسة عشرة من عمرها، لا امرأة تخطَّت أعوامها الأربعين. لاحت مني التفاتة إلى الكتاب الذي أعطاني إياه. كنتُ قد وضعته على الطاولة الزجاجية قرب الشرفة. قمتُ متكاسلة من مكاني. كانت المرة الأولى التي أمسك فيها كتاباً منذ أن تركتُ مقاعد الدراسة. نظرات جعفر إليَّ أحرجتني! لاحظته يتبعني بعينيه وأنا أتجوَّل في أرجاء المكتبة. كان شغفه بالمطالعة واضحاً، كما إلمامه الواسع باللغة الإنكليزية. أصابني توتر لهشاشة ثقافتي. مرَّرتُ ناظريَّ على غلاف الكتاب المائل بين يديَّ: «رؤية حول السجال المذهبي» للشيخ حسن الصفَّار. في صفحته الأولى كُتبت الآية القرآنيّة ﴿إِنَّ

(١) زينب حفني. **إيقاعات أنثوية / قصيدة «هذيان»**، دار مختارات، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٤، ص٤١، ٤٢

هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾. قلَّبتُ صفحاته. توقَّفتُ عند فصل «اختلاف المذهب هل يمنع التزاوج»: «الشيخ محمد الحسن النجفي في «الجواهر» بعد مناقشته للآراء والروايات التي يظهر منها المنع من التزاوج بين الشيعة وغيرهم، قال ما نصه: المدار على الإسلام في النكاح، وإن جميع فرقِهِ التي لم يثبت لها الكفر بنصب أو غلو أو نحو ذلك ملَّة واحدة، يشتركون في التناكح والتوارث وغيرهما من الأحكام والحدود»[1]. توقفتُ عند هذا الحد. أغلقتُ دفَّتيه. أرجأتُ قراءته. تُرى هل قصدَ إعطاءه لي؟ تذكَّرت ابنتي. آه! كم أنا في شوق غامر إليها. لم تُفارقني يوماً واحداً منذ أن أنجبتها.

أستعيدُ عبارتها عند وداعي لها لحظة سفرها: «أمي، تزوجي. لا أريدك أن تعيشي بقية حياتك وحيدة. لا تزالين شابة». تُرى ما سيكون موقفها لو قبلتُ الزواج من جعفر؟ هل ستوافق على اقتراني بشيعي؟ وأخي؟! آه من أخي! هذه قصة أخرى.

* * * * *

بعد وفاة زوجي قرر والديَّ أن أعود للعيش معهم. رفضتُ بشدة. صرخ أبي في وجهي: «أريد أن أحميكِ. أنتِ لا تزالين شابة صغيرة، وستكونين مطمعاً لضعاف النفوس». بكيتُ بحرقة. رجوته

(١) حسن الصفَّار. **رؤية حول السجال المذهبي**، مؤسسة العارف، بيروت، الطبعة الثانية ٢٠٠٥، ص٤٥

أن يتركني أعيش مع ابنتي في «الفيلا» التي أمضيتُ فيها أجمل أيامي. لم أكن ارغب بالتخلّي عن ذكرياتي ولا أن أوليها ظهري تاركة أتربة الزمن تعلوها وتأكل الرطوبة جدرانها. وافق أبي على مضض على شرط أن يعيش معي أخي إياد الذي يصغرني بست سنوات. رضختُ لمطلبه. كان إياد المتحكم في حياتي؛ لا أخرج إلا بإذنه، لا أزور واحدة من صديقاتي إلا بعلمه. عيناه السابحتان في بحيرة من الشك والريبة مصوَّبتان طوال الوقت إلى وجهي. ينظر إليه أبي بفرحة قائلاً لي: «سأترك لك سنداً قوياً من بعدي». أحياناً كنتُ أنظر إليه بغيظ. كيف يمكن لفتى غرٍّ أن يُقيِّد حريتي لمجرد أن هناك رابط دم يجمعنا؟! صرتُ أنفر من وجوده. أمقتُ رؤيته. خلقت تحكُّماته وعدُّه لخطواتي تصدُّعاً عميقاً في علاقتنا. في النهاية تركتُ أمر ترميمها للقدر. لم أتنفَّس براحة إلا بعد أن تزوَّج وتلهَّى بمسؤوليات أسرته. كان قد وجد له مخرجاً آخر يُمارس من خلاله سلطته.

كانت المرة الأولى التي أسافر فيها بمفردي. أعلمتُ أخي برغبتي في السفر إلى بيروت مع صديقتي سوسن. لم يُبدِ اعتراضاً. غضَّ الطرف عندما لمح أسراب الوحدة تحطُّ رحالها في زوايا عينيَّ. تربطني بسوسن صداقة قديمة، منذ أن كان زوجي على قيد الحياة. يعمل زوجها محاسباً في شركة كبيرة بجدَّة. في أواخر عقدها الرابع. هي من شجَّعني على السفر. ارتأت حاجتي الماسة لهذه الرحلة بعد سفر ابنتي وعد.

استرجعتُ حديث سوسن: «أتدرين يا فاطمة؟ لا يهزم المرأة سوى أفول شبابها. من دونه تضعف سلطتها. أقسى مراحل المرأة حين تلفى صباها ينساب بخفَّة من بين أصابع يديها. تجد نفسها تنزُّ ألماً على فراقه الأبدي. يتفاقم كمدُها إذا كان لها زوج لا يعبأ بأحزانها، منشغلاً عنها بملاحقة فتيات صغيرات بنظراته الشبقة. أعرف أن زوجي أضحت له علاقات كثيرة، جميعها مع صبايا من عمر بناتي. ربما يدفعك الفضول لسؤالي عما يجبرني على المكوث معه وعدم رفع دعوى طلاق. اعتبارات كثيرة يا صديقتي، أهمها أنه لم يعد لي مأوى آخر. أبواي توفيا. لا اعتقد أن إخوتي سيرحبون بي في بيوتهم لو فكرتُ في العيش بينهم من جديد. كما أن ابنتيَّ على مشارف الزواج وأريد أن أكون بجانبهما وهما تُزفَّان إلى عريسيهما. أخيراً، لماذا أترك لأخرى نهب كل شيء، أنا التي بدأت معه من نقطة الصفر؟!». صمتت فجأة. ارتسمت على وجهها تعابير الوجع. أطلقت زفيراً طويلاً وتابعت: «عندما يُمارس زوجي الجنس معي، أتمنى أن أصفعه على صدغيه، أن أدفعه بعيداً عني. أراه وهو يعلو ويهبط فوق جسدي كأنه آلة حرث عتيقة. لم يعد يتفنَّن في إمتاعي كما كان يفعل في سنوات زواجنا الأولى. قال لي مرَّة بنبرة ساخرة بعد انقطاع طمثي: «لقد جفَّ ريق فرجك. لم يعد نديًّا كسابق عهده. غدت عجيزتك متهدلة كإليتي ضأن. أصبح نهداك مترهلين وبحاجة لمنفاخ هواء يُعيد إليهما صلابتهما! يظهر أن صلاحيتك كامرأة قد انتهت». بكيتُ طوال الليل. قلتُ له صبيحة

اليوم التالي بجفون متورمة وأنف مُحمرَّة أرنبته إنني قررتُ ألا يقربني إلا في الظلام الدامس. حدَّجني بقرف وهزَّ رأسه ومضى».

كنا على وشك الإقلاع. أعلن المضيف وجوب ربط الأحزمة، متمنياً لنا رحلة موفقة. التفتُّ باسمةً صوب صديقتي سوسن القابعة بجواري. خلعتُ وشاح رأسي بهدوء. حشرته في حقيبة يدي. حرَّرتُ عقدة شعري من رباطها. تركتُ خصلاته تنطلق بيسر خلف ظهري. أطلقت سوسن شهقة. حدَّقت في وجهي بدهشة: «فاطمة! على حد علمي، أنتِ مُحجَّبة منذ زمن!».

أجبتها بصوت رائق: «هذا صحيح. لكنني قررتُ أن أعيش حياتي بطريقة مختلفة. أرغب يا سوسن أن أرى الوجه الآخر الذي لم أعرفه من الدنيا. أتحرَّق إلى اقتحام أرض لم تطأها قدماي من قبل. أريد أن أتنفَّس تحت الماء من دون أوكسجين اصطناعي».

ربَّتت سوسن على ظهر كفي قائلة: «أحترم قرارك. من أنا حتى أقرِّعك أو أحاكمك؟ جميعنا نُولد بصفحات بيضاء ثم تنمو في دواخلنا عقد كثيرة أثناء تعثرنا في طرقات الحياة. وهذا ليس عيباً ولا خرقاً لقانون البشر. المهم أن نملك الشجاعة للتحرر من أغلالنا. أعمارنا أقصر من أن نقضيها في الندب والولولة على ما ضاع منا، أو إهدارها في تعقُّب آثار آثامنا التي أرتكبناها في غفلة من ضمائرنا!». بلعتْ ريقها مكملة: «سأعترف لك بشيء. نهاية العام الماضي، في

فترة احتفالات «الكريستمس»، وأنا في طريقي لبيروت، كان حظي رائعاً حين جلس بجواري في الطائرة رجل خمسيني. كانت عيناه تخترقان جسدي بجرأة لامتناهية. لأول مرة منذ سنوات طويلة وجدت رغباتي تتحرك. اكتشفت أن أنوثتي التي ظننتُ أنها ولَّت إلى غير رجعة لم تزل حية تُرزق. عند وصولنا إلى مطار رفيق الحريري رميتُ حقائبي في بيت أختي. خرجت أتسكَّع معه في أرجاء بيروت. كأني أتعرَّف إلى مدينتي للمرة الأولى. لم أرفض طلبه حين عرض عليَّ الذهاب معه إلى غرفته في الفندق. قال لي وهو يأخذني بين ذراعيه: «أنتِ امرأة استثنائية. لم ألتقِ من قبل امرأة لديها كل هذا المخزون من المشاعر الفياضة». طلبتُ إليه بنبرة رجاء أن يُطفئ نور الحجرة. تفرَّس في وجهي قائلاً: «لا تحرميني متعة النظر إلى تعابير وجهك. أريد أن أملأ عينيَّ بملامحك واستمتع بالوهج الذي يطلُّ من محجريك لحظة ولوجي فيك». بكيتُ. تذكرتُ زوجي. إهماله لي. لحظتها شعرت بأن شبابي الذي دفنته بيديَّ هاتين قد بعث مرة أخرى للحياة بين ذراعيه. أرجوك، لا تُصوِّبي نحوي أسهم نظراتك القاسية المليئة بالاتهام! أنا لم أكن يوماً امرأة خائنة، ولا امرأة تستحلي مذاق الخيانة! الخيانة في رأيي رد فعل على أشياء كثيرة نمرُّ بها تجعلنا نسجد عند أقدامها صاغرين من دون أن نشعر بتأنيب الضمير أو نأبه بسهام اللوم التي ترشقنا من كافة الاتجاهات! انتابتني لحظات يأس فكَّرت فيها بالانتحار، لكن علاقتي بغسان منحتني القوة لأكمل حياتي مع زوجي.

منذ اللحظة التي التقيته فيها تغيَّر مجرى حياتي. لم يعد يهمني إنْ عشقَ زوجي مئات النساء، لكوني غارقة في حب رجل أضاء البهجة في حنايا قلبي. رجل لا يُلزمني أن أدفع له كل ليلة ثمن انزلاقي إلى عالم الكهولة، ولا يتركني بلا رحمة في العراء، بمفردي، أتأسَّف على شبابي وانتفض خوفاً من صقيع الشيخوخة. عيشي حياتك يا فاطمة. لقد ترمَّلتِ صغيرة. ربما تلتقين صدفة هنا في بيروت برجل حلمك».

بتر تسكُّعي في حديقة ذكرياتي رنين هاتف الغرفة. كان جعفر. سألني: «هل نمتِ؟!». ضحكتُ قائلة: «كنتُ أنتظركَ». ودخلنا في حديث هامس حتى سقطت السماعة من يدي على نغمة صوته تخترق ذبذباتها أعماقي وتُهدهد مهدي.

جعفر

أنتَ يا جنَّةَ حبي واشتياقي وجنوني
أنتَ يا قبلةَ روحي وانطلاقي وشجوني
أغداً تُشرق أضواؤكَ في ليل عيوني؟
آه من فرحة أحلامي، ومن خوف ظنوني
كم أناديكَ، وفي لحني حنين ودعاء
يا رجائي أنا، كم عذَّبني طول الرجاء

قصيدة «أغداً ألقاك»
الهادي آدم

(١)

لم أصدِّق نفسي! كيف أطلب الزواج من امرأة لم أعرفها إلا منذ يومين فقط؟! هل غدوتُ متهوِّراً، متسرِّعاً في اتخاذ قراراتي على غير عادتي؟! لستُ نادماً على فعلتي. لا أعرف ما الذي أصابني عندما وقعت عيناي على فاطمة في مقهى «بوتي كافيه»! كأن «كيوبيد» الحب أخترق قلبي من ساعتها. كل حواسي انتفضتْ لحظة رأيتها. فتنتني. امرأة تقطر أنوثة. أسرتني عيناها. شعاع الحزن الذي ينبثق منهما يزيدهما سحراً. أخذتني الدهشة حين قالت لي إنني أول رجل يقتحم حياتها منذ وفاة زوجها. لم يُساورني الشك ولو لهنيهة في صدق كلامها. اعتدت سماع قصص كثيرة من أصحابي حول تجاربهم مع عالم النساء. بعضها كان يدفعني للضحك، وبعضها الآخر كان يحثني على وجوب أخذ الحيطة والحذر. تولَّدتْ عندي قناعة بأن هناك نساء يُجبرن الرجل على تصديقهن من دون أن يُقسمن بأغلظ الأيمان، بمجرَّد النظر في بريق عيونهن. وهناك نساء يفوح الكذب

من أفواههن وإن ذرفن الدمع مدراراً من مآقيهن. ما يُميِّز فاطمة من غيرها أن نجمَي روحَينا تعارفا في أعالي السماء قبل أن تتبادل عيوننا النظرات على الأرض. انزلقتْ إلى قلبي بيسر. لم أجد نفسي غريباً ضلَّ طريقه ودخل دنياها عن طريق الخطأ. شعرتُ كأنني كنت طوال عمري أنتظر عند بابها طالباً الإذن بالمثول بين يديها. ذبذبات كونية تنبثق من مساماتها أصابتني بالدوار. لن أدعها تفلتُ مني. أعرف ما سيقوله أهلي، ما سيُعلِّق به أصدقائي! كيف ترتبط بامرأة تكبرك؟! حقيقةً، أجهل عمرها. استشفَّيتُ من هيئتها الخارجية أنها قد تكون في أواخر عقدها الثالث. لا أعبأ بفارق العمر ولا ببعد مسافة الميلاد. أتذكَّر عالية ابنة عمتي. كانت في الثانية والعشرين وكنتُ أيامها في بداية تشكُّل ملامح مراهقتي. كانت تضطرب لحظة تراني. ترتعش أهدابها كلما خاطبتني. تستحلي ترك يدها مسترخية في يدي عند سلامي عليها. أحس بحرارة كفِّها الدافئة تتسرَّب إلى شراييني. أشعر بدمي يندفع بين فخذيَّ. أشتهيها بقوة. أتمنى لمس جسدها الفائر، اكتشاف أغوار أنوثتها. استحضرها كل ليلة في فراشي. أدلق عليها مائي في لحظات احتلامي. لا أدري كيف انسقنا ذلك اليوم خلف جموحنا!! كان في بيتنا ديوانية صغيرة بناها أبي في ركن بالحديقة. كانت أمي حينها في المطبخ ملهية بتحضير وجبة العشاء لضيوف أبي القادمين من البحرين، وأختاي فاطمة ونهى في زيارة صديقة لهما. حضرت عالية إلى بيتنا حوالي الساعة الخامسة. كان الجو رطباً وحاراً

مع دخولنا شهر أغسطس. نداء عينيها الصارخ شجعني على دعوتها للاندساس في الديوانية. أزاحت الوشاح عن رأسها لحظة جلوسها على الأريكة. أرخت عباءتها. كانت عالية مليحة التقاطيع مكتنزة اللحم، لديها غمَّازتان تغوران حين تبتسم ونهدان ناهضان يرتسم من خلالهما مجرى مثير تلهَّفتُ دوماً لرؤية مصبِّه. أغمضتْ عينيها. سلَّمتني شفتيها. أخذتُ أُمطرهما بقبلات سريعة. غاصت أناملي برفق في عشها الدافئ المغطى بزغب خفيف. لم ألحظ أن بنطالي قد تبلل إلا مع شهقة لذتها. دفعتني عنها. عدَّلت تنورتها. ثبَّتت وشاحها فوق رأسها. خرجت مهرولة من دون أن تلتفت.

انقطعت عالية عن زيارتنا منذ ذلك اليوم. تعمَّدتُ اختلاق أعذار واهية لزيارة منزل عمتي. كانت زيارتي تنتهي بالجلوس مع عمتي وزوجها، من دون أن تُفكر عالية في الخروج من غرفتها. قالت أمي ونحن نتناول الغداء إنها ستذهب الليلة إلى بيت عمتي لتُبارك لها خطوبة عالية. لم أعلِّق. غرستُ نظراتي المضطربة في صحن الطعام. أحسستُ بمرارة خيبة تنزلق في حلقي. كانت رائحة بشرة عالية لا تزال عالقة في أنفي.

ليلة عقد قران عالية تمعَّنتُ في زوجها طويلاً. كان هادئ الملامح، تفوح الطيبة من طيَّاتِ جلده. تيقَّنتُ رغم حداثة سني من أن عالية ستعيش مرتاحة البال. طويتُ صفحتها منذ تلك اللحظة. لم أرها

بعد ذلك اليوم حاسرة الوجه. كانت كلما أتت لزيارتنا تُحيِّيني من بعيد والنقاب مُنسدلٌ على وجهها.

* * * * *

مع دخولي جامعة البترول والمعادن انتقلتُ للعيش في مدينة الظهران. أقمتُ في غرفة صغيرة بسكن الطلاب. جلس إلى جانبي منذ اليوم الأول طالب اسمه أمين صدقي. نشأت سريعاً ألفة بيننا. صرنا نُذاكر معاً. نتشارك في تبديد أوقات فراغنا. في عطلة نهاية الأسبوع نقتطف ساعات نذهب خلالها إلى البحرين. نقطع المسافة بسيارة أحدنا عبر جسر الملك فهد. نتسكع في مجمع «السيف». نختلس النظر إلى الفتيات اللواتي يأتين للتسوق أو للفرجة ودفع الضجر. نتجرأ أحياناً على التعرُّف إلى رفيقتين. نُغريهما لمرافقتنا إلى سينما «دلمون» أو «الماسة». نتحجَّج بأن هناك فيلماً ممتعاً. في الظلمة الحالكة تعبث أيدينا بالأجساد الفائرة وتسخن شفاهنا. نخرج من قاعة السينما من دون أن نُلمَّ بما دار في الفيلم من بدايته لنهايته. نُقفل عائدين في الليلة نفسها. أحرص دائماً على المبيت في منزل أبويَّ بالعوامية.

قررتُ بعد تخرُّجي من الجامعة زيارة جدَّة التي لم يسبق لي رؤيتها. شجَّعني أمين على مرافقته. كانت عائلته السنِّية تعود أصولها إلى جدَّة. يعمل والده بشركة «أرامكو» منذ أكثر من خمسة وعشرين

عاماً. انتقلوا للعيش في مدينة الخبر منذ ذلك الوقت. أبقوا على بيتهم في جدَّة، ويذهبون إليه في المناسبات والأعياد.

كنت ألاحق امتداد البحر الأحمر من شباك الطائرة. سألتُ أمين: «هل كورنيش جدَّة شبيه بكورنيش الخبر؟».

أجاب: «بحر جدَّة ليس له مثيل في كل الدنيا يا جعفر لكونه يُخبِّئ في قيعانه أسرار أهلها، كما يُردد أبي دوماً».

لكزته في خاصرته مازحاً: «أنت متعصِّب لجدَّة يا أمين. إذا كانت جدَّة عروس البحر الأحمر، فلا تنسَ أن مدينتك، الخبر، التي ولدتَ ونشأت فيها، عروس الشرقية».

أجاب: «هذا ليس تعصُّباً يا جعفر. لقد أورثني أبي عشق هذا البحر. يقول لي دوماً بنبرة ضاحكة: «ما الحب إلا للحبيب الأول يا بُنَي. كل ذكريات طفولتي مرتبطة بهدير أمواجه ونعومة رماله ودفء شطآنه».

صديقي أمين دمث الخلق عزيز النفس، يتعامل معي بأريحية صادقة. لم أره يوماً يتصرف حيالي بلؤم أو خبث. منذ أن أكتشف كلانا مذهب الآخر، تجنَّبنا الخوض فيه. كانت متانة صداقتنا كافية لصدِّ أية محاولات لتصديعها.

رطوبة جدَّة تشبه رطوبة المنطقة الشرقية. حال وصولنا مساءً، أخذني أمين في جولة على الكورنيش. كانت الأكشاك التي تبيع الحمص الشامي والذرة المسلوقة وعربات البوظة منتشرة على جانبَي الطريق. لمحتُ بائعات من السود الأفارقة يتربَّعنَ على الأرض وأطفالهن في حجورهن، يعرضن أمامهن بضاعة للبيع هي عبارة عن ألعاب بلاستيكية رخيصة وأكياس من اللوز المحمَّص والحُمر الجاوي وأكياس الحناء و«شراشف» للصلاة متعددة الألوان، وأشياء غيرها. لم تُشكِّل لزوجة الجو عائقاً أمام تواجد بعض الأسر التي جلست على المقاعد الرخامية المواجهة للبحر، تاركة أطفالها يمرحون حول المجسمات الفنية المنصوبة، وقد بدت من بعيد نافورة الملك فهد تتعالى مياهها في الفضاء.

جدَّة خلبت لبِّي. بساطة أهلها، كرم ضيافتهم، طينة أرضها التي ينبثق منها عُشب التسامح، ذلك كله أوقعني سريعاً في حبِّها. أدركت حينذاك أن صديقي أمين لم يعشقها اعتباطاً. في صبيحة اليوم التالي، استيقظنا عند الساعة السادسة. كان أمين قد اتفق مع مجموعة من أصدقائه على القيام برحلة صيد في يخت صغير يملكه صديق له يُعَدُّ والده من أثرياء جدَّة. عدنا من رحلة الصيد حوالي الساعة الخامسة وذهبنا إلى الشاليه الذي تستأجره عائلة أمين سنوياً بكبائن شمس. كان الشاليه يقبع مباشرة على الشاطئ. جلسنا في الشرفة المفتوحة وقد هدَّنا التعب من رحلة النهار. مرَّت أمامنا فتاة

عشرينية تلبس بنطال جينز وتي شيرت أبيض بأكمام قصيرة. أظهر رداؤها الضيق خصرها الصغير وتناسق ردفيها الخاليتين من الدهون، مع أن مؤخرتها البارزة لا تتناسب حشوتها مع نحافة جسمها. وجهها بيضاوي دقيق الملامح. رمت بصرها ناحيتنا. ألقت ابتسامة غامضة. سارت في طريقها.

لاحظ أمين نظراتي. قال: «هل أعجبتك؟ شاليه أسرتها قريب منا. اسمها رجاء. عائلتها من الأسر النجدية الثرية التي نزحت منذ بداية الطفرة إلى جدَّة واستقرت فيها. تخرَّجت العام الماضي في واحدة من جامعات أميركا الذائعة الصيت. سمعتُ أن كثيرين تقدَّموا لخطبتها. جميعهم قوبلوا بالرفض. لديها شروطها الخاصة!».

قررنا المبيت في الشاليه. أمضينا نهار اليوم التالي في السباحة. عند الخامسة استأجرنا أنا وأمين اثنين «جت سكي». لمحنا رجاء تقود واحداً وتتسابق مع آخر يقوده قريب لها، وقد تعالت ضحكاتها. في المساء، وبينما نحن جالسان في الشرفة، مرَّت أمامنا. تجرأ أمين وألقى عليها التحية. أومأت برأسها مُحيِّية. رمقتني بطرف عينها وأكملت سيرها.

أعطاني أمين ورقة مطوية:

- «هذا رقم جوَّالها.

- ماذا سأقول لها لو سألتني كيف حصلتُ على رقمها؟

- قل لها الحقيقة. لو كانت مُعجبة بك ستستمر في الحديث ولن تدخل في سين وجيم معك».

كنتُ مبهوراً بأنوثتها المتدفقة عبر حبال صوتها وهي تتحدَّث معي عبر الهاتف. في الأيام الأولى كان أغلب حديثها منصبَّاً على أميركا وحياتها فيها طوال فترة دراستها وحلمها بالعيش مستقبلاً في مدينة نيويورك الصاخبة. حنينها للحرية التي كانت تستنشقها وهي تسير في الطرقات، وعندما تُشرِّع أبواب نافذتها مطلع كل صباح. وعلى خيباتها المتواصلة منذ عودتها إلى السعودية لعدم استطاعتها ممارسة عملها كمحامية بعد حصولها على شهادة القانون. كانت نبرتها ممزوجة بالتمرُّد والغضب على حياتها الفارغة. كانت ملمَّة إلماماً كبيراً بأوضاع العالم السياسية. لا أعرف كيف تطرَّق الحديث إلى تاريخ السنَّة والشيعة، وإلى حرب الخليج الأولى، وإلى تورُّط إيران في شؤون العراق الداخلية، وإلى شيعة السعودية. أظهرتُ حماستي. أبديتُ تعاطفي معهم، مع حقهم في اعتلاء مناصب عليا في الدولة أسوة بالسنَّة. ساد صمت بيننا أخترقه صوتها قائلة بنبرة متوترة:

- «دفاعك عن الشيعة غريب!

- بصرف النظر عن كونهم أهلي، أنا هنا أتحدَّث كإنسان».

صعقها ردِّي، قالت:

- «لماذا لم تُخبرني بأنك شيعي؟!

- جميعنا شيعة وسنَّة ننطق بالشهادتين!

- غير صحيح ما تدَّعيه. هناك خلافات جذرية كثيرة بيننا. لا أستطيع تكذيب التاريخ. آسفة، لا أحبُّ التحدُّث مع رافضيٍّ!».

قالتها بنبرة حادة، مُنهية المكالمة من دون أن تُلقي التحية. تملَّكني الوجوم. لم أصدِّق سمعي. كيف يمكن لفتاة درست في الخارج، ولديها حصيلة ثقافية واسعة، أن تكون بهذه العقلية الرجعية؟!

طيَّبَ أمين خاطري. رجاني أن أطرد من بالي هذه الواقعة الأليمة. فشل في ثنْيي عن قراري بالعودة إلى القطيف. حين وصلتُ إلى مطار الدمام تنفَّستُ الصعداء. لم يخطر ببالي أن هذه التجربة ستُحفِّزني بعد أشهر قليلة على إنشاء مدوَّنة باسمي على الشبكة العنكبوتية، سعيت من خلالها إلى تصحيح النظرة الخاطئة إلى المذهب الشيعي وأهله. حرصتُ على نشر جميع المقالات والأنشطة والندوات التي تُشجِّع على احترام التعددية المذهبية، وتلك المنادية بوجوب المساواة بين كافة المواطنين في حقوقهم من دون تمييز بينهم.

كنتُ في الرابعة والعشرين من عمري حين دقَّ شرطيٌّ باب بيتنا. أمرني بأن أرافقه إلى مخفر الشرطة. سأله أبي جزعاً عن سبب استدعائي، فأجاب بأننا سنعرف كل شيء هناك. رافقتني دعوات أمي المبللة بدموعها حتى تجاوزتُ عتبة البيت.

قال الضابط موجِّهاً حديثه لوالدي:

- «ابنك متَّهم بإثارة الفتنة الطائفية في البلاد من خلال مدوَّنته الخاصة.

- هذا اتهام خطير يا حضرة الضابط. أترجَّاك أن تُطلق سراحه وسأدعه يكتب تعهُّداً على نفسه بإقفال مدوَّنته إلى الأبد.

- آسف. هذا قرار خارج عن دائرة سلطتي. هناك أوامر بإبقائه لدينا بعض الوقت».

بقيتُ أسبوعين موقوفاً في حجرة ملحقة بالمخفر. استجوبني الضابط عدة مرات لمعرفة إن كانت هناك أيد خارجية حرَّضتني على تبنِّي هذا الاتجاه. عند خروجي كتبتُ تعهُّداً خطياً بإقفال مدوَّنتي. زادتني تجربتي صلابة. حثَّتني على أن أغدو أكثر وعياً. انخرطتُ بعدها في أنشطة ثقافية عامة. بتُّ أكتب بين حين وآخر مقالاً في عدد من المنتديات وفي بعض الصحف الإلكترونية. أصبحتُ عضواً في عدد من الملتقيات، إضافة إلى عملي الأساسي في شركة «أرامكو».

علامات استفهام عديدة أخذت تتضخَّم في فكري حول حقيقة ما يجري من حولي. راح إحساسي بالغبن يتفاقم يوماً بعد يوم. بأنني مواطن مُهمَّش داخل بلدي! وسط دوَّامات الحيرة كانت استجوابات أمي هي الأخرى تُلاحقني: «لماذا ترفض الزواج؟!»، مرة بنبرة استعطاف، ومرة بنبرة تهديد، وينتهي الأمر في كل مرة بسماعي

صوتها الحنون يلهث بالدعاء بأن يوفّقني الله ويهديني إلى زوجة صالحة.

لم تنقطع صلتي بصديقي أمين بعد سفره إلى الولايات المتحدة الأميركية لتكملة دراسته العليا. كان قد تزوج بابنة خاله قبل سفره بشهور. بقينا نتراسل يومياً عبر الإنترنت. يقصُّ عليَّ أخباره. يُظهر ضيقه من نظرات البعض له المليئة بالريبة. يؤكد لي أن تبعات تفجيرات الحادي عشر من سبتمبر لا تزال آثارها محفورة في ذهنية الكثيرين. أخبرني أن برنامجه اليومي يكاد يقتصر على الذهاب إلى الجامعة لمراجعة الأستاذ المشرف على رسالته ثم يُقفل عائداً إلى البيت. في العطل الأسبوعية يصطحب زوجته لرؤية واحد من الأفلام الجديدة المعروضة في صالات السينما أو التنزه في الحدائق العامة، يعودان بعدها إلى شقتهما.

لم يكن يمرُّ في خاطري ولو هنيهة أن أيمن سيموت على يد مجموعة من العنصريين الكارهين للعرب. كانت عطلة نهاية الأسبوع. خرج يومها ليشتري بعض اللوازم التي تحتاجها زوجته لتحضير وجبة العشاء. اتفق مع مجموعة من الأصدقاء وزوجاتهم على قضاء الأمسية في شقته. كان الشارع شبه خالٍ من المارة. اعترضته مجموعة من الشباب في شارع جانبي. قال له أحدهم: «عربي قذر». بصق الآخر أمامه على الأرض وقال: «مسلم إرهابي». لم يردَّ. آثر تجنُّبهم

والسير باتجاه البيت. فاجأه أحدهم بطعنة سكين في خاصرته. سدد له الآخر طعنة في ظهره. سمعوا وقع أقدام. ركضوا بلمح البصر. عندما وصلت الشرطة كان أيمن غارقاً في دمائه وحاجياته متناثرة من حوله. شاهد شخص ما حدث من خلف نافذة شقته. توصلوا للفاعلين بفضل الأوصاف التي أدلى بها. في التحقيق اعترف القتلة بفعلتهم. سألهم المحقق: «هل كانت هناك عداوة شخصية بينكم وبين القتيل؟». كانت الإجابة: «لا نريد عرباً في بلادنا».

وصلني خبر مقتل أمين وأنا منهمك في عملي. شعرتُ بنبضات قلبي تتسارع وبتنميل يسري في أوردة ساقيَّ. تحاملتُ على نفسي. خرجت من مكتبي من دون استئذان. قُدْتُ سيارتي بلا وعي. صورة أيمن ماثلة أمامي. وجدتُ نفسي واقفاً عند بيت أبي بالقطيف. صُعِقَتْ أمي حين رأتني. هالها اصفرار وجهي. ضربت على صدرها صارخة «يا علي». ارتميتُ في حجرها أُنهنه بصوت مكتوم. مسحت بكفِّها الحاني على رأسي قائلة: «لم تتغيَّر عادتك يا جعفر. كلما أغضبكَ أو أحزنك شيء، تهرعُ إليَّ وتدفن رأسك في أحضاني. رأيتك آخر مرة على هذا الحال يوم احتجزوك في المخفر. هناك بالتأكيد مصيبة وقعت جعلتك تجيء إلى هنا وترمي أحزانك في حجري».

رحم الله صديقي أمين. ذهب ضحية عنصرية مقيتة لم تعرف طريقها لنفسه يوماً. لا تزال ذكراه الحسنة تسكن وجداني.

(٢)

ولدتُ قبل ثلاثين سنة بحي الديرة في بلدة «العوامية»، محافظة القطيف. ابن وحيد وبنتين، وترتيبي الثالث. لا أحبُّ عبارة «ولدتُ وبفمي ملعقة من ذهب»، لكنني أنحدر من أسرة موسرة. لم أعرف طوال عمري طعم الحرمان المادي، لكنني تذوقتُ علقم الحرمان الأبوي في طفولتي المبكرة. لم أجد أبي بجواري لحظة خروجي إلى الدنيا. أطلقتُ صرختي الأولى وهو قابع خلف القضبان. كان قد تمَّ اعتقاله بحجَّة حيازته كتباً يُروِّج محتواها للمذهب الشيعي، وبسبب بلاغ كيدي يؤكِّد تورُّطه في إقامة محاضرات تُحرض على قلب النظام. لم أردِّد كلمة «أبي» إلا بعد خروجه من السجن. كنتُ في الرابعة من عمري يوم عاد إلى البيت. حملني بين يديه وقبَّلني. رحت أبكي. ضمَّني إلى صدره قائلاً: «لا تخف يا جعفر، أنا أبوك». من وقتها صرتُ أدور في البيت وأنا أردِّد كلمة أبي. كان يلاحقني بعينيه والسرور يطفح من ملامحه.

يملك أبي مكتبة كبيرة تشغل غرفة واسعة في منزلنا. أسسها بعد خروجه من السجن. تحتوي على كتب نفيسة منوَّعة الاتجاهات. عندما بلغتُ الثامنة من عمري، حرص أبي على أن يُدخلني مكتبته ويُجلسني أمامه على المقعد ويقرأ لي أشياء لم أكن أفقه منها شيئاً. تقول له أمي: «جعفر لا يزال صغيراً على فهم ما تقرأه له!». كان يُجيبها: «أريده أن يعتاد على رائحة الكتب. القراءة تبدأ بالإلفة بين الإنسان والكتاب». بعد أن شببتُ قليلاً تضاعف فضولي في نبش بطون الكتب. صرتُ أمدُّ يدي. أعبث بمحتويات مكتبته. أبعثر رفوفها. ألتهم ما فيها بعينيَّ.

في الرابعة عشرة من عمري بدأت قراءة «ألف ليلة وليلة». عشتُ أسابيع بين سطوره. أعدتُ قراءة أجزائه عدة مرات. كنتُ مأخوذاً بعالم الجن والسلاطين، مبهوراً بدنيا الملك شهريار وحبيبته شهرزاد. اكتشفتُ عالم المرأة من خلال شهرزاد. رسمت لها صورة رائعة في مخيلتي. عشقتُ صفاتها. تمنيتُ لو كانت لها نسخة مكررة على أرض الواقع. بهرني ذكاؤها. مكرها. عمق ثقافتها. نجاحها في الهرب من سيف الجلاد بفضل قدرتها الماهرة على سرد الحكاية تلو الحكاية. في مرحلة لاحقة أبحرتُ في عالم الإمام محمد الحسيني الشيرازي. أثَّر فيَّ فكره المستنير. انغمستُ سنوات في قراءة عصارة فكره «موسوعة الفقه» المؤلفة مما يُقارب مئة وستين مجلداً. توقفتُ طويلاً عند جزء «فقه الحكم في الإسلام» المتضمن آراءه القيمة في

الحياة الإنسانية وحقوق المرأة والرجل والاستقلال الفكري والسياسي والاقتصادي في المجتمعات الإسلامية.

أتذكَّر أنني قدت سيارة أبي الـ «بيويك» وأنا في الخامسة عشرة. كان أبي مسافراً إلى سوريا لزيارة مقام السيدة زينب عليها السلام. شجَّعتُ أختيَّ على الركوب معي في جولة. ثارت أمي عندما اكتشفت فعلتي. أقسمتْ على أن تُخبر أبي عند عودته. وبَّخني بشدة قائلاً: «لقد تركتُ أمك وأختيك في رعايتك. يجب أن تتعلَّم كيف تُصبح رجلاً مسؤولاً. كان من الممكن أن ترتكب حماقة تذهب ضحيتها أنتَ أو واحدة من أختَيك. عِدني يا جعفر ألا تُكرر فعلتك».

في موسم «عاشوراء»[1] الذي يبدأ مع دخول شهر محرَّم الثالث عشر منه، كنتُ أنشغل في مواكب العزاء الحسيني. أحرص على مرافقة أبي إلى مآتم «عاشوراء» التي تُقام في الحسينيات، وتبدأ يومياً من صلاة الفجر حتى منتصف الليل.

يقف بيتنا على قدم وساق في موسم «عاشوراء». تحرص أمي كل ليلة على إحضار «الملاية» التي تقدِّم كل ليلة محاضرة مختلفة. تقوم أختاي فاطمة ونهى بمساعدة أمي في تحضير وجبات خفيفة للضيافة. في بعض الأوقات أعود مبكراً، فتتناهى إلى سمعي أصوات

(١) يوم عاشوراء: اليوم الذي جرت فيه واقعة «كربلاء» أو «الطفّ» التي قُتل فيها سبط النبي محمد (ص)، الإمام الحسين بن علي مع جمع من خيرة أبنائه وأصحابه في أرض كربلاء بالعراق. حدث هذا في يوم الجمعة العاشر من محرَّم سنة ٦١ هجرية الموافق ٦٨٠ ميلادية.

النسوة وهنَّ يصرخن «واحُسَيناه، واسيِّداه». أدخل إلى غرفتي. أرمي جسدي المتعب على السرير. يُصادف أحياناً عند انفضاض المجلس أن تخترق أذنيَّ رنَّات ضحكات صبايا بعمر أختيَّ. يتملكني الفضول. أتمنى التلصُّص عليهن، رؤية وجوههن، لمح هيئاتهن.

عندما بلغتُ الطور، طلبتُ إلى أبي أن يقصَّ عليَّ حكاية اعتقاله. حدَّثني متأسِّياً كيف استقبل خبر ولادتي في سجنه. أوصى أمي حينها بأن تُسمِّي المولود جعفر إذا كان ذكراً، وزينب، على اسمها، إذا كانت أنثى. أخبرني أن اقتناء كتب لعلماء شيعة في ذلك الوقت كان جريمة لا تُغتفر، والتحدُّث عن حقوق الشيعة خطيئة كبرى يجب معاقبة مرتكبها!

نظر إلى وجهي بحنو. أطلق زفرة حارة ثم قال: «انظر يا جعفر إلى هذه الكتب المرصوفة على رفوف مكتبتنا. قبل أن يتمَّ اعتقالي، قمتُ بدفن جزء كبير منها في فناء الدار بعد أن وضعتها في أكياس من الخيش خوفاً عليها من المصادرة. بعضها لم يصمد للأسف. أتلفتها الرطوبة أثناء سجني. وبعضها الآخر ظلَّ متماسكاً إلى أن أخرجتها من مخبئها. الحمد لله يا بني على أنك أتيتَ في زمن تغيَّرت فيه الأحوال كثيراً. لم تعد هناك محاذير صارمة على كتب الشيعة كما كان يجري في زماننا. أضحت هناك ندوات ومحاضرات تُقام في العلن، تتحدَّث عن حقوقنا، تحت أنظار السلطات».

تُوفي أبي قبل عامين. قال لي وهو على فراش الموت: «تركتُ لك إرثا عظيماً؛ لا تُفرِّط بمكتبتي. هي التي ستحميك من التخبُّط في لجج التطرف وستهبك الحكمة في معالجة أمور حياتك جميعها». لم تعد صحة أمي تسمح لها بإقامة مآتم «عاشوراء». ظلَّت تحرص على حضور المجالس الدينية التي تُقام في منازل الجيران القريبة. حرصت أختاي على زيارة أمي يومياً بالتناوب بعد أن تزوجتا وصارت لكل منهما حياتها الخاصة.

فاطمة وجعفر

يا حبيبي، كُلَّما ضمَّنا للهوى مكان
أشعلوا النار حولنا فغدونا لها دخان
قل لمن لام في الهوى هكذا الحُسنُ قد أمر
إنْ عَشقْنا فَعُذْرُنا أنَّ في وجهنا نظر

قصيدة «جفنُهُ علَّمَ الغزل»
بشارة الخوري

نظرتْ إليه بمجامع عينيها. ضمَّت يده بين راحتيها قائلة بنبرة عذبة:

- «دعني أحبّكَ. أريد أن أعيش معك قصة عشق ملتهبة. لم أجرِّب في حياتي هذا النوع من الحب. أمنحني الفرصة لأتذوَّقه. أتألم يوم تغيب عني. أحزن حين أفتقد صوتك. أتشاجر معك عندما أراك تختلس النظر إلى امرأة غيري. دع قلبي يخفق من الفرحة كلما رآك بجانبه.

- فاطمة، أنا صادق في كل كلمة قلتها لك. قولي إنني سريع في قراراتي لكن هذا لا يمنعني من الاعتراف بأنني أحببتك لحظة وقعت عيناي عليكِ. بل لا أبالغ في كلامي إذا قلتُ إنني بتُّ متيَّماً بك. أنتِ نصيبي الذي كتبه الله في لوح قدري.

- إذن دعني أجمع تذكارات مختلفة من أيام حبنا القادمة. أصفُّها في خزانتي ليصبحَ لديَّ مخزون كافٍ من الصور الجميلة

أقلِّبها بين يديَّ بين فينة وأخرى لأُشعل بها فتيل مشاعري من جديد. أريد عندما يقع خلاف بيننا أن تشفع لك عندي قصص حبنا، فأغفر أي ذنب تقترفه في حقِّي. لو لم يكن الزواج مبنياً على زخم كبير من الذكريات الحلوة، لبات من الصعب أن يبقى صامداً أمام الأعاصير التي تجتاحه».

أجابها وهو يلتهم بنظراته صفحة وجهها:

- «آه منكِ! لقد عشقتُ فيلسوفة من دون أن أدري!

- بل أحببتَ امرأة كل أملها أن تحلَّ غموض الحب على يدَي حبيبها!

- قبل أن أعرفك كنتُ رجلاً ليلياً يعشق السهر. ومن لا يعرف النوم يا فاطمة لا يحلم! لذا فأنا أجهل غيبوبة الحلم. لكنني لحظة دخلتِ حياتي صاحبتُ النوم طوعاً. أتدرين لماذا؟ كي ألتقي بك في واحة أحلامي».

كانا يجلسان في مقهى «بوتي كافيه» الذي شهد لقاءهما الأول. مالت الشمس نحو المغيب. لاحظ شرودها. سألها:

- «ما بكِ؟!

- لحظات الغروب تُصيبني بالحزن. لماذا كل الأشياء الجميلة في حياتنا لا بدَّ أن تنتهي؟!

- هي لا تزول، بل تظل قابعة في وجداننا. نستنشق عبقها الزكي كلما تسارعت نبضات قلوبنا حنيناً إليها. لولا الغروب لما عرفنا قيمة الشروق. منذ صغري عشقتُ طلوع الفجر؛ يستهويني مشهد تسلل الشمس من مخبئها».

عادت لشرودها. شبكت أصابع يديها، أرخت أهدابها، وقالت بنبرة يُغلِّفها الحياء:

- «من هو حسن الصفَّار الذي أهديتني كتابه؟

- هو شيخ من شيوخ الشيعة المتنورين. له آراء جميلة في المرأة. يرى أن أنوثة المرأة لا تمنعها من التفوُّق، ولا يُعيق تقدمها، ولا يفرض عليها أن تظلَّ في موقع التبعية والانقياد للرجل.

- اعذرني يا جعفر. أنا امرأة كرَّستْ حياتها لتربية ابنتها، لا لأيِّ شيء آخر.

- هذا لا يمنعك من أن تُثري عقلك. المعرفة غذاء للروح والعقل. هي لا تقلُّ أهمية عن طعامنا وشرابنا اللذين يمدَّان أجسادنا بطاقة الاستمرار. هكذا علَّمني والدي. هل تعلمين أن السيدة نفيسة صاحبة المقام الشهير بالقاهرة كانت دارها مزاراً لكبار العلماء في عصرها، بمن فيهم الإمام الشافعي الذي كان يحبُّ تلقِّي العلم منها؟».

لاحظ طول صمتها. اقترح عليها أن يمشيا على الرصيف. هذه المرة أظهرت حماستها. مضى الوقت سريعاً. غزت جيوش الظلمة الأرض من جديد. قلَّت حركة الشارع. حرَّضهما هدوء المكان على إزالة برقع الكلفة. ضغط على يدها، شعر بدفئها، جذبها نحوه، أحاط خصرها بطول ذراعه. كانت أنوثتها تُعلن الاستسلام، تُعلن العصيان على جميع المحاذير المحفورة على حائط فكرها. تصلَّبتْ قدماها في مكانيهما. أوقف سيارة أجرة. لقيت نفسها من دون أن تدري في غرفته بفندق الـ «موفمبيك» المطل على البحر. كان جو الغرفة دافئاً، وضوء خافت ينبثق من نور «الأباجورة» الموضوعة في إحدى الزوايا. تنبعث موسيقى كلاسيكية هادئة في أرجاءها. تكوَّرت على المقعد مثل قطة سيامية تترقَّب بلهفة وثبة رفيقها. جثا على ركبتيه أمامها. خلع حذاءها. أخذ يُقبِّل أصابع قدميها. نظر هائماً إلى صفحة وجهها قائلاً: «فاطمة، أنا لم أضع الخمر في جوفي طوال عمري، لكنني أريد أن أحتسيه معك. أريد أن أريق النبيذ على جسدك وألعقه بلساني. عندي رغبة ملحَّة في أن أجرِّب معك كافة أنواع المحرَّمات، ثم أعلن بعدها توبتي على يديك. ليس هناك أروع من أن أعود إلى صوابي على يد المرأة التي أحببت والتي لن أحبَّ سواها».

غطَّت وجهها براحتَي يديها. تركت أنامله تتحسَّس سلسلة ظهرها. قبض بكفَّيه على رمَّانتَي صدرها. تفجَّرت ينابيع شهوتها. ملأت تأوهات لذَّتها فراغ الغرفة. أخذ يعبُّ من حلاوة عسيلتها.

كان كلما أحسَّ بخصوبة تربتها، وطراوة مغارتها، خرج عن طوره أكثر. لمس بنفسه طول ظمئها، ملؤه الإحساس بالزهو والغرور، لكونه الفارس الأوحد الذي دكَّ أرضاً لم يطأها غازٍ قبله. ثلاثة أيام مرَّت لم يخرجا فيها من باب الغرفة. اتصلت بها صديقتها سوسن على جوالها مرات عديدة. عندما لم تتلقَّ جواباً، بعثت لها برسالة قصيرة قالت لها فيها: «ليس أجمل من لحظات الحب في حياة المرأة». عند عودتها إلى حجرتها، وقفت أمام مرآتها عارية. لم تصدِّق أنها هي نفسها التي غادرتها قبل أيام قليلة. ما هذا البهاء الذي يطلُّ من عينيها؟! ما هذه النضارة التي تُغطِّي طبقة جلدها؟! ما هذه الفرحة التي تتراقص في حنايا فؤادها؟! أهذا الانقلاب كلُّه بسبب كؤوس الحب التي تجرَّعتها؟!

هاتفتْ سوسن. اتفقتا على اللقاء عند الساعة الحادية عشرة صباحاً بمقهى «ستاربكس» في شارع الحمرا. جلستا متواجهتين ترمقان بعضهما بفرحة وعلى شفاهما كلام كثير. كانت كل واحدة منهما ترغب في أن تُفرغ ما في جعبتها، في أن تدلق على الطاولة أمام الأخرى تفاصيل ما جرى معها خلال الأيام الفائتة. «أنا سعيدة»، قالت سوسن. «وأنا أحلِّق في الفضاء من السعادة»، ردَّت فاطمة. وأخذت تحكي بصوت مبتهج، وسوسن تُنصت بحبٍّ. كشفتْ لصديقتها ضيقها من كون جعفر شيعيَّ المذهب.

زعقت سوسن في وجهها:

- «أنتِ مجنونة أو هبلة! ماذا يعني إن كان شيعيًّاً أو مسيحيًّاً حتى؟ عيشي لحظتك، حاولي تجاوز هذه الإعاقات الاجتماعية السخيفة.

- هذه ليست إعاقات يا سوسن. هذا واقعٌ شببنا عليه، يُحتِّم علينا التريُّث قبل أن ندخل إلى منطقته الخطرة.

- أنتِ تحمِّلين الأمور أكثر مما تحتمل. هنا في لبنان لا نهتم بهذه التعاليم الرجعية. لدينا شيء اسمه الزواج المدني، يُجيز للمسلمة الزواج بمسيحي! صحيح أنه غير مسموح به قانوناً في الداخل، لكنه مقبول اجتماعياً. شخصياً أعرف زيجات كثيرة ناجحة.

- كل ما قلتِهِ ذكره لي جعفر. لقد أفهمني أن بلدكم زاخر بالتناقضات، وأن الاضطرابات التي تقع على أرضكم بين حين وآخر لا تنفي أنه بلد التسامح والحريات. مجتمعكم القائم على خليط من الطوائف والمذاهب المتعددة هو الذي أتاح لكم تقبُّل هذه الأوضاع بطيب خاطر».

ربَّتت سوسن على يد صديقتها قائلة: «دعكِ من كلام السياسة والسياسيين. تزوجيه يا فاطمة. يجب أن تقتلي خوفك. الحب هو الأداة الوحيدة القادرة على إنعاش عضلات قلوبنا الضعيفة. وحده الحب يُشعرنا بأننا لا نزال نحيا على كوكب الأرض. لا تطردي حبًّا نقيًّا عثرتِ

عليه في منتصف الطريق. عندما تميل أعمارنا نحو الناحية الأخرى التي يسمونها الكهولة، وتتسع المسافة بيننا وبين زهوة الشباب، لا بدَّ أن نتروَّى قبل أن نُوصد الأبواب في وجه هذا الضيف الجميل الذي لا يزورنا سوى مرة واحدة في عمرنا. دعي حبيبك يُثبت حسن نيته. الوقت لا يزال في صالحك وخيوط اللعبة جميعها في قبضة يدك».

لم تُعلِّق فاطمة. أسندت صدغها على راحة كفِّها. أكتفت بمراقبة حركة السيارات التي يكتظُّ بها شارع الحمرا ساعة الذروة. قطع الصمت تساؤل سوسن «أينَ رُحْتِ؟!». طفت ابتسامة حائرة على ثغر فاطمة. نظرت إلى ساعة يدها. قبَّلت صديقتها على وجنتيها، قالت: «لا بد أن اذهب لملاقاة جعفر. لا أريده أن ينتظر». أطلقت سوسن ضحكة رنَّانة، وعلَّقت: «نعم يا صديقتي، الانتظار طويلاً يبعث الملل في أفئدة المحبين. لا تنسي ذلك».

* * * * *

مرَّت الأيام العشرة التي قضتها فاطمة في بيروت كلمح بصر. كانت الطائرة التي ستقلُّ جعفر إلى الدمام قبل موعد عودتها إلى جدَّة بيوم واحد. أصرَّت على اصطحابه إلى المطار.

قالت له وهما جالسان في مقهى المطار:

- «أنا أكبر منكَ سنّاً».

- لو كان عمركِ أضعاف عمري لما توقَّفتُ لحظة عن حبِّك».

علَّقت نظراتها بعينيه. أخذت تُدندن بصوت خافت أغنية طلال مدَّاح «اليوم يمكن تقولي يا نفس إنِّك سعيدة. يشهد على صدق قولي دقَّات قلبي الجديدة. وأنا في درب الهلاك. ظهرت لي يا ملاك. غيَّرت مجرى حياتي. شُفتْ السعادة معاكْ».

«أحبُّ هذه الأغنية كثيراً يا فاطمتي».

فاطمة

يا حبيبي تعالى وكفاية اللي فاتنا
هوه اللي فاتنا يا حبيب الروح شويَّة؟
اللي شفته قبل ما تشوفك عينيَّ
عمر ضايع يحسبوه إزاي عليَّ؟
إنتَ عمري اللي ابتدى بنورك صباحه

أغنية «إنتَ عمري»
غناء المطربة أم كلثوم

(١)

«أتمنى أن تكون حبيبتي ورفيقة درب المستقبل مثقَّفة وقارئة نهمة. عديني يا فاطمة أن تتعلَّمي استعمال الكمبيوتر كي تستطيعي استخدام الإنترنت ومعرفة ما يجري في العالم من حولك». طبعتُ يومها على شفتيه قبلة سريعة، قلتُ: «أعدك. وسترى أنني بالفعل تلميذة نجيبة».

استعدتُ حوارنا وأنا واقفة أملأ استمارة التسجيل في مركز الكمبيوتر القريب من منزلي. كانت الفرحة تغمرني وأنا أسلِّمها لموظفة الاستقبال. سألتها بحماسة:

- «متى يُمكنني بدء التدريب؟

- يوم السبت القادم إن شاء الله ستبدأ الدورة الجديدة».

مضى أكثر من شهر على عودتي من بيروت. انقلبت حياتي رأساً على عقب منذ أن تعرَّفتُ إلى جعفر. كل يوم يمر تكبر غلاوته في

قلبي. الأوقات التي أمضيها معه غدى لها وقع شديد في وجداني. كل رفيقة أو قريبة تراني تسألني مندهشةً عن سر الشعاع الأخّاذ الذي يطلُّ من ملامحي! أضطرب، تتخضَّب وجنتاي خجلاً. أحسُّ بأنني مراهقة بدأت للتو العبث بعُذرية أيامها. حاولت كثيراً أن أخفي هيئة جعفر الرابضة طوال الوقت في أرضية عينيَّ فلم أفلح. كانت نظراته، حديثه، دفء أحضانه، ملتصقة طوال الوقت بجلدي. أحلم به كل ليلة يقتحم باب غرفتي. يدسُّ نفسه في فراشي. يُدغدغ مكامن أحاسيسي. أدمنت رائحته. لا أغطُّ في النوم إلا بعد أن استحضره في خاطري. أدعه يُهدهد فوران رغباتي. رائحة جلده تربض في أنفي. منذ عرفته أعلنتُ التوبة عن عهري الوهمي. لم أعد أتخيَّل رجالاً غرباء أصحبهم إلى مخدعي لأطفئ بهم سعير احتياجي كما كنتُ أفعل في الماضي. أصابني حبُّه بالتخمة. منحني اكتفاء ذاتياً. جعلني أعلن زهدي بالرجال كافة.

اعتاد جعفر زيارتي كل أسبوعين. أعطي إجازة للسائق والخادمة. أضيء الشموع في كل ركن بحجرتي. أسدل ستائرها. أبخِّرها بالعود. أرتدي قميص «بيبي دول» بلون وموديل مختلفَين في كل مرة. أفكُّ شعري. أدعه يتنفَّس بهمجية على أرضية ظهري. أتعمَّد تحرير وجهي من المساحيق. يقول لي مُداعباً: «هي وسيلة زيف سريعة الانقشاع. أنا رجل شرقيُّ الهوى يكره الزيف ويحبُّ البساطة».

أحاول أن أبقيه عند كل زيارة مدة أطول من سابقاتها. يُلاحظ جزعي المفرط من فكرة غيابه. يضحك وقول: «كم أتمنى أن أسمعك تقولين لي: أبقَ يا جعفر بجانبي إلى نهاية العمر. لكنك جبانة يا حبيبتي. مع هذا أحبُّ كل ما فيكِ». يُوصد الباب خلفه ويرحل تاركاً رائحته تسطع في أرجاء المكان. أشعر بالوحشة تُطبق من جديد على أنفاسي.

وسط هذه التحولات التي اقتحمت حياتي وقلبتها رأساً على عقب، كانت تُداهمني لحظات يئنُّ فيها فؤادي. أحاول جاهدة طرد وساوسي من ساحة فكري. تُعاود التسلل بين طيات جسدي. كان فارق العمر يقضُّ مضجعي ومذهبه الشيعي يُنغِّصُ عليَّ فرحتي. أخرج أحياناً عن طوري. أنفجر بالبكاء بين أحضانه. لم يكن يسألني عمَّا بي. كان يملك قدرة خارقة على الغوص في أعماقي. معرفة دواخلي. يضمُّني بقوة إليه. يلثم دموعي بشُفتيه الشرهتين. يعصرني بين ذراعيه. يحملني على هودج فُحولته. أغيب ساعات في عالمه السحري. تهدأ انفعالاتي. أفيق ثملة من تخمة الشبع. أتمنى أن أبقى في جنَّته إلى ما لا نهاية.

هل أدمنتُه إلى هذا الحد؟! كلما حضرتْ في ذهني فكرة زواجي به، حضرتْ أمامي بقوة صورتا ابنتي وأخي. أحسُّ بالعرق يتصبَّب من جبيني. دقات قلبي تتسارع. في واحدة من المرات وأنا

أحادث ابنتي عبر الهاتف، سألتها: «هل هناك عيب إن تزوجتُ برجل يصغرني؟». تغيرت نبرة صوتها، قائلة بحدَّة: «أمي... قرار خلعك للحجاب لم أتدخل فيه لأنه في النهاية شيء بينك وبين ربك. وليس عندي اعتراض على فكرة زواجك، لكن اختيارك هو ما يعنيني. ماذا تريدين أن يقول الناس؟! أمك امرأة متصابية! سأتبرَّأ منك لو أقدمتِ على هذا الفعل المخجل».

غلبني الأرق في تلك الليلة. هجرتُ فراشي. وقفتُ عند النافذة أراقب من خلف زجاجها لحظة انزلاق الفجر من رحم الليل. كان فكري شارداً وشعاع الصبح الناعس يُداعب صفحتَي عينيَّ. أحسستُ بأن ابنتي طعنتني في أمومتي. تنكَّرت لسنوات تضحيتي. من أين أتت بهذا الكمِّ من القسوة؟! هي بالتأكيد لم ترثها مني ولا من أبيها! لقد سقيتها من نهر حناني منذ أن كانت في المهد إلى أن أصبحت عروساً. هل تصرُّفها نابع من قناعتها بأنني ملك خالص لها؟! أعترف بأنني كنتُ صارمة في تربيتها. أضيِّق الحصار عليها في خروجها ودخولها. كانت في بعض الأحيان تُظهر تذمُّرها وضيقها، متهمة إياي بأنني أخنق حريتها، لكنها سرعان ما كانت تعود إلى أحضاني باكية، طالبة مني الصفح والغفران.

إذا كان هذا حال ابنتي، كيف ستكون ردَّة فعل أخي؟! حتى الآن لم أتحلَّ بالشجاعة لأخبره عن نزعي للحجاب. أُدرك مقدار

تزمُّته في هذا الموضوع تحديداً. تعرَّف أخي إلى زوجته وداد بالقاهرة في واحدة من إجازاتنا الصيفية. التقاها صدفة في فندق «ماريوت» الذي كنا ننزل فيه. كانت تجلس في بهو الاستقبال تحتسي كوباً من العصير بصحبة صديقة لها، حين لفتَ نظره قوامها الممشوق وسواد عينيها وابتسامتها التي تُظهر استقامة أسنانها ونصاعة بياضهما. هرع إليَّ. رجاني أن أعرف اسمها وكل شيء عنها. وقع في حبها من اللحظة الأولى، كما ظلَّت تتفاخر أمام صديقاتها. تقدَّم لخطبتها فور عودتنا إلى جدَّة. اشترط عليها أن تتحجَّب. تردَّدتْ في البداية. لم تكن موضة الحجاب قد انتشرت كما هي حاصلة اليوم. تشكو لي كلما زرتها من غيرته الشديدة. تضييقه طوال الوقت عليها وعلى ابنتيه في خروجهما ودخولهما. أطيِّب خاطرها. أعلِّق على تصرفه بأنه برهان قاطع على حبِّه لهن.

* * * * *

كانت الساعة تُشير إلى السادسة مساء. طلبتُ إلى السائق أن يأخذني إلى «مركز الخيَّاط» الواقع في شارع التحلية. أخذت أتسكَّع بين المحلات، أتفحَّص «الفترينات». اشتريت بعض الملابس الداخلية من محل DKNY مستغلة موسم التخفيضات. تنبهتُ إلى أن الساعة اقترب من الثامنة. أمرتُ السائق بأن يُقلِّني إلى مطعم «النخيل» الذي

يقع على الكورنيش. كنتُ قد واعدتُ صديقاتي على الالتقاء بهن هناك، وتدخين «الأرجيلة» التي تعلَّمتها في بيروت على يد جعفر.

كانت المرة الأولى التي التقي فيها بصديقاتي بعد عودتي. عاتبنَني على انقطاعي عنهن كل هذه المدة. علَّقت عواطف قائلة: «بالتأكيد هناك أمر شغلك عنا! تغيير جذري حصل في حياتك! هل أنتِ يا امرأة في حالة حب؟!».

أضافت رابحة: «لننصب لها منصة اعتراف»، مطلقةً العنان لضحكتها الأنثوية.

قصصت عليهن تفاصيل لقائي بجعفر. ماذا قال لي في اللقاء الأول. كنتُ أحكي بعينين حالمتين لا تأبهان بردود أفعال من حولها. أردتُ أن يعرف العالم بأسره أنني في حالة عشق مزمنة لا شفاء منها. لمحت في عيون صديقاتي بريق حسرة ممزوجاً بغيرة. حفَّزنني على التمادي أكثر في سرد أدق التفاصيل.

قالت رابحة: «سبحان الله! الرجل بإمكانه أن يجعل المرأة تتمرَّغ في النعيم بحبِّه. وبإمكانه أيضاً أن يدفعها إلى السقوط في هوة اليأس بسفالته! ألا توافقنَني الرأي؟ انظرنَ إلى فاطمة، أكبر مثال على صحة كلامي؛ لقد غدت مثل الوردة النضرة، بشرتها مُشرَّبة بحمرة طبيعية وروحها مُشعَّة كالشمس لحظة شروقها، حتى إنها تبدو الأصغر سنّاً بيننا».

ملأتني الفرحة. تذكَّرتُ زيارة إياد الأخيرة لي. قصصتُ له أخباري الاعتيادية. أخبرته عن اشتراكي بدورة الكمبيوتر. عبَّر لي عن فرحته بخطوتي وقال إنها بالتأكيد ستُخفِّف عليَّ وحدتي. لا أدري لماذا استشرفتُ في نظراته غيوم شك وريبة! طافت في مخيلتي هيئة جعفر. ألفيتُ نفسي أخاطبه في سرِّي: «شكراً حبيبي، أنا مدينة لك بطلَّتي الجديدة».

(٢)

«كان فين هواك من بدري يا حبيبي وكل ما فيك. كان من قبلك أنا عايشة مع العايشين. بَكلِّم نفسي من الوحدة بقالي سنين. ومن ضيقتي ما كنتش عارفة أشكي لمين. ودلوقتي أنا بعمل حساب بعدين. يا ريت أبدأ حياتي». أخذتُ أدندن وأنا أستحم تحت الماء المتدفق من الصنبور. كان بخار الماء الساخن بعض الشيء قد شكَّل طبقة ضبابية على مرآة الحمام. كتبتُ بإصبعي أحرف اسم جعفر عليها. انفلتت مني ضحكة مفعمة بالفرحة. «ما هذا الفعل الصبياني يا فاطمة!»، قلتُ لنفسي وأنا ألفُّ بالمنشفة شعري المبلل.

آه! لم أكن أظن أن الحب يُعلِّمنا الغفران والتسامح ويجعل قلوبنا أكثر رحابة في احتواء الآخرين وتقبُّل أخطائهم. غدت أمل صديقة الطفولة تفرض نفسها في ساحة فكري هذه الأيام. تجمعنا الكثير من الذكريات الجميلة. كنَّا نتبادل الزيارات. نُذاكر مع بعضنا

أيام الاختبارات. تقصُّ كل واحدة منَّا على الأخرى ما يمر بها من تغييرات جسمانية، الدورة الشهرية، تفتُّح مسام أنوثتنا، معاكسات أبناء الجيران لنا، تجربتنا الأولى في طلاء الحمرة على خدودنا وفي وضع إصبع «الروج» على شفاهنا، حبنا المشترك لأغاني عبد الحليم حافظ. عندما كانت تأتي إلى بيتنا، كنت أغلق باب حجرتي بالمفتاح. نظلُّ نرقص معاً على نغمات أغانيه حتى تنهدَّ قوانا. في واحدة من المرات أتتني باكية. طلبت إليَّ أن أكتب بخطِّي الجميل رسالة عتاب منها إلى حمزة ابن جيرانهم. رجتني أن أختم رسالتها بكلمات أغنية عبد الحليم «أهواكْ واتمنَّى لو أنساكْ». كانت سنوات مراهقتنا قصيرة المدى. لم نغصْ طويلاً في عالم الرجل. لم تسنح لنا الفرصة للتنقيب في خباياه. جاءت صدفة قدرية أننا تزوجنا في العام نفسه. كنَّا فرحتين لأننا سنلبس الفستان الأبيض والطرحة البيضاء ونضع المساحيق على وجهَينا. لأن والدتينا لن توبخانا بعد الآن بسبب طريقة لبسنا أو تسريحة شعرنا. لن يفرض أحد بعد اليوم حصاراً على دخولنا وخروجنا. كان هذا جلَّ تصوُّرِنا للزواج.

كانت أمل بحق أجمل فتاة في مجموعتنا. لها وجه رائع التقاسيم، بضَّة البشرة، ممشوقة القوام، تتمتَّع بطول فارع مثل عارضات الأزياء، شعرها ذهبي سائح من دون تموجات، يصل منتهاه إلى منتصف ظهرها، عيناها واسعتان يسبح فيهما فصَّان أزرقان بلون البحر وقت صفائه. كانت تتفاخر أمامنا بأن جمالها ورثته عن جدَّتها الحلبية، قائلة بمرح:

«الحمد لله أن العِرق دسَّاس». بدأ الخُطَّاب يتهافتون على بابها منذ أن كانت في الرابعة عشرة من عمرها. كانت تطلعات والدها ألا يُزوِّجها إلا بمن يعرف قدْر جمالها. عندما تقدَّم لها رجل أعمال معروف بثرائه، لم يكترث أبوها لفارق العمر الذي يتجاوز خمسة عشر عاماً. وضع يده في يد عريسها بعد أن قدَّم له مهراً ومؤخراً كبيرين، ووعداً قاطعاً بأن تعيش أمل معه حياة منعَّمة طول العمر.

لم تنقطع صداقتنا بل زادت أواصرها عقب زواجنا. أغيظها أحيانا فأذكِّرها بحمزة ابن الجيران. تُقهقه قائلة: «كان حبَّ عيال يا فاطمة». بعد سنة على وفاة زوجي عماد، تعرَّض زوج أمل لحادث سيَّارة تسبَّب له بشلل نصفي. انهارت أمل. كانت تبثُّ لي همومها. تشكو انهيار حياتها الزوجيَّة وانعكاس حالة زوجها الصحِّية على تدهور أحوالهم الماليَّة. كنتُ أطيِّب خاطرها، وأقول لها أن تحمد الله لأن زوجها لا يزال على قيد الحياة، ولأن القدر لم ينتزعه من بين يديها كما فعل بي، وأن تتصبَّر على مصابها بوجود بناتها الثلاث اللواتي يُظلِّلن حياتها.

بعد مرور عام على حادثة زوجها، تغيَّرت أمل. تعرَّفت إلى شلة جديدة من الصاحبات. غدت تُسافر معهن بين حين وآخر. خفَّت نبرة شكواها. قلَّت زياراتها لي. عادت ضحكاتها الصاخبة تجلجل في أرجاء المكان الذي تتواجد فيه. لم تعد تتأفَّف من شح دخلها المادي.

كل شيء فيها صار يزعق بحب الحياة. صارحتني في لحظة صفاء بأنها غارقة في بحر العشق، وأنَّ رجلاً دخل حياتها، متزوج ولديه أسرة. أدركَ لحظة رآها نقاط ضعفها. أكتشف بيسر حاجتها الملحَّة إلى رفقة تُبدد الصقيع الذي يُحاصرها، وإلى فارس نبيل يحمل عنها صرة احتياجاتها. لم يتردد هنيهة. كان هو الآخر يبحث عن حضن دافئ يهرب إليه من ضغوط الحياة. يومها، صرختُ فيها: «أنتِ خائنة. لا تستحقين أن تكوني أمّاً. الأفضل لك أن تطلبي الطلاق وتعيشي حياتك بالطريقة التي تريدينها. ليس من حقك طعن الرجل الذي تحملين اسمه». نظرتْ إلى وجهي بعينين مترقرقتين بالدموع، وقالت بصوت مَخنوق:

- «لا تظنِّي يا فاطمة أنني لم أعد أحبُّ زوجي. أقسم لك أن مكانته لا تزال كبيرة في قلبي.

- هل من الممكن أن تُحبَّ المرأة رجلين في وقت واحد؟!

- نعم، من الممكن إذا أكمل أحدهما الآخر. رجل يُصبح واجهة اجتماعية، ويهب المرأة الأمان والدفء اللذين تحتاج إليهما؛ ورجل ينفخ سرّاً في روحها، مُجدِّداً بماء فحولته خلايا جسدها الذابلة».

أجبتها منفعلة:

- «كاذبة يا أمل! كلامك سخيف وغير منطقي. المرأة متى ما أحبَّت يستعبدها العشق. يُطهِّر جسدها وإن كانت أشهر نساء الأرض عُهراً.

- هذا لأنك لم تمرِّي بتجربتي. هل جرَّبت يا فاطمة أن تعيشي حياتك تحت سقف واحد مع رجل ولَّت رجولته إلى غير رجعة؟ لا تضربي المثل عن نفسك. زوجك رحل عن دنيانا إلى الأبد، وهو ما يجعل الأمل حيَّاً في وجدانك بأن تلتقي يوماً رجلاً ينعش فؤادك المنكسر. لقد قام زوجك بتأمين حياتكِ وحياة ابنتكِ قبل أن تذهب روحه إلى خالقها. أمَّا أنا، فلا يزال زوجي يُذكِّرني في كل لحظة بأنه أصبح في عداد الأموات وهو حي يُرزق. أنت تُدركين جيداً ما يعنيه ألا ترتوي تربتك بماء رجل وهي بعدُ خصبة متعطشة للارتواء! أنت ترفضين مواجهة هذا الواقع، أمَّا أنا، فلا أريد الموت يابسة العود وأنا في رونق شبابي. أنا امرأة تحب الحياة. أريد أن أتمتَّع بجسدي قبل أن يجفَّ ويضمرَ من الإهمال والقحط. كيف تريدين مني الانزواء في كهف موحش؟! أتعرفين متى ستعذرينني يا صديقتي؟! يوم تعشقين وتحسين بنطفة الحب تتحرَّك في أحشاءك. عندها لن تغضبي ولن تُحاكميني بهذه القسوة».

قطعتُ صلتي بأمل منذ ذلك الوقت. لم أعد أعرف عنها شيئاً. رفضتُ الرد على مكالماتها أو استقبالها في بيتي. غدتْ في نظري

امرأة ساقطة. آه! كم كنتُ قاسية عليها! حكمتُ عليها بالإعدام وكنتُ القاضي والجلاد. صادرتُ حقها في الترافع عن نفسها. حاولت مؤخراً معرفة طريقها. لم أجد لها أثراً، كأن الأرض انشقَّت وبلعتها بأخطائها. علمتُ صدفة منذ أيام أن زوجها توفي منذ عامين وأنها انتقلت للعيش في القاهرة مع بناتها الثلاث، بعد زواجها من طبيب مصري كان يعمل في إحدى المستشفيات الخاصة بالسعودية.

كثيرة تلك الأمور التي تُغيِّر وجهتنا في الحياة، لكن الحب يظل الساقية التي تدور حولها حياتنا، لتُفجِّر آباراً نقية تغمر تربتنا المتشققة. كانت عدّة أشهر قد مرت على علاقتي بجعفر. أصبحتُ أنظر إلى كل شيء في حياتي بمنظار التفاؤل. لم أعد أشعر بالحسد من امرأة حارب حبيبها الدنيا من أجل أن يبقى إلى جوارها. لم أعد أحقد على أي امرأة ألمح السعادة تطفح في أرضيَّة عينيها. حبي لجعفر وحبه لي جعلاني أشقُّ طريقي بثقة. أحرصُ على حضور الندوات الثقافية التي تُقام من حين لآخر في صالونات البيوت، وغيرها من التي تُقام في النادي الأدبي بجدَّة. صرتُ أجادل، أناقش، أبدي رأيي في مشاكل المرأة. كانت تُولد في داخلي امرأة مُغايرة من دون أن أنتبه.

(٣)

دعتنا فائزة للعشاء في بيتها. كانت مائدة الطعام مكوَّنة من أطباق صينية مختلفة. طلبنا جميعاً الشاي الأخضر لهضم الطعام اللذيذ الذي أصابنا بالتخمة. قالت فائزة: «عليكنَّ جميعاً الليلة احتساء فناجين من القهوة التركية». رمقناها باستغراب. تابعت: «لقد عثرتُ على عرَّافة أثيوبيَّة هائلة في رؤية الطالع، ماهرة في قراءة خطوط الفنجان. قرأتْ لي فنجاني وأخبرتني أشياء كثيرة حقيقية عن حياتي». دارت الخادمة علينا بفناجين القهوة. علا صوت فائزة: «من يُريد أن يبدأ؟». تبادلنا النظرات. قالت رابحة: «أنا». بدأت العرَّافة تتفحَّص فنجانها. قالت لها كلاماً اعتيادياً ألِفنا سماعه من أغلبية العرافات اللواتي طرقنا في الماضي أبوابهن مرات عديدة. أمسكتْ بفنجاني. غرزت فيه نظراتها. أخذت تدوِّره بين يدها. رمت حدقتيها في وجهي. أشارت بسبابتها إلى خطوط فنجاني. خاطبتني باسمة: «تمنَّني جيداً. من هذا الشاب الوسيم الذي يتوسَّط فنجانك؟». لم أعلِّق. تابعت: «هذا الرجل إذا

ظهر في طريقك سيُغيِّر حياتك نحو الأفضل. تمسّكي به. سيكون طوق نجاتك من وحدتك. والله أعلم». امتدَّت سهرتنا إلى الساعة الثانية بعد منتصف الليل. أظرف ما فيها ما قالته العرَّافة لإيمان بأنَّ في فنجانها خطَّ زواج وأنها ستتزوَّج قريباً وتُودِّع حياة العزوبية. كلُّنا ردَّدنا فَرِحاتٍ في نفَس واحد: «آمين».

* * * * *

«تعالَينَ إليَّ بسرعة!»، صرخت فائزة عبر الهاتف. تحلَّقنا حولها منتظرات منها أن تبدأ بالكلام. انفجرت باكية. قالت إنها اكتشفت أن زوجها على علاقة بمضيفة تونسية. سألناها عمَّا إذا كانت متأكدة من كلامها أو هي شكوك وأوهام من صنع خيالها. أجابت بأنها قامت بتحرياتها الخاصة. تأكدتْ من أنه على علاقة بها منذ أكثر من ثلاثة أشهر. التقى بها في الطائرة وهو ذاهب إلى باريس لحضور مؤتمر طبي هناك. حاولنا تهدئة روعها. كانت منهارة، تُردِّد «الله يلعن الرجال. كلهم سفلة. تفكيرهم منصبٌّ بين فخوذهم». لم تستطع واحدة منَّا تبرير ما حصل. أكتفينا بتهدئة روعها والقول إنها نزوة وستنتهي، وإن الرجال في مرحلة عمرية معيَّنة يفقدون توازنهم ويريدون أن يشعروا بأنهم لا يزالون مرغوبين من الشابات الصغيرات. كانت نصائحنا مُتقاربة.

بحلقتْ إيمان في وجوهنا مستنكرة، وقالت بنبرة حادة: «ليس هناك سبب مقنع يدفع المرأة إلى التمسُّك برجل خان كرامتها وداس أنوثتها ولم يحفظ عهدها، خصوصاً إذا كانت متعلمة ولديها استقلالها المادي». لم تُعقِّب أي منا على كلام إيمان.

مشكلة فائزة أرَّقتني. جعلتني مشوَّشة التفكير. هل من الممكن أن يخونني جعفر يوماً؟ بعد عشر سنوات أكون في عقدي الخامس وهو في عقده الرابع، ما يعني أنه سيغدو وقتها في ذروة رجولته. قالت لي صديقتي سوسن عندما نقلتُ لها وساوسي: «الرجل الذي يحب المرأة لا يعبأ بتغيُّر تضاريسها، ويظلُّ عاشقاً لروحها. اسألي مُجرِّبة». تضحك متابعة: «حتى لو حصل هذا يوماً يا صديقتي، يكفيك أنك عشتِ لحظات حب حقيقية ولم يذهب شبابك سُدى».

فجأة قررتْ فائزة السفر إلى القاهرة. غابت أسبوعاً. هاتفتني حال عودتها. طلبت إليَّ الحضور إليها بمفردي. كانت تبدو في حالة جيدة. الهالات السوداء التي كانت تُحيط بعينيها خفَّت كثيراً. خطوط الهمِّ التي كانت ارتسمت فجأة على معالم وجهها حلَّت مكانها لمسة ارتياح.

قالت بنبرة فرحة:

- «ستنتهي مشكلة زوجي قريباً.

- هل وعدك بتركها؟! هل تأكدتِ بالفعل من أنه أنهى علاقته بها؟!

- لا هذا ولا ذاك. هل تعرفين لماذا سافرتُ إلى القاهرة؟ صديقة مصرية أعرفها منذ زمن أخبرتني بأنها تعرف قسيساً قبطياً يقوم بأعمال خارقة، كالتفريق بين الزوجين أو إعادتهما لبعضهما. بإمكانه أيضاً جعل الزوج لا يرى سوى زوجته ولا يحب غيرها.

- يمكن أن يكون نصَّاباً، طامعاً في فلوسك. خصوصاً عندما علم أنك سعودية!

- ليس من هذه العيِّنة. سعره معقول جداً مقارنةً بغيره. عمله يتطلَّب إحضار أثر من مَني الزوج ويقوم بخلطه بماء فرج الزوجة، ثم يضعهما في صُرَّة صغيرة ويكتب بعض الطلاسم السحرية، ويدفنها في مكان ناءٍ حيث يستحيل أن يصل إليها أحد. لقد أوصاني بأن أخلط نقطة من حيضي طوال فترة الطمث مع قهوة زوجي الصباحية».

أفلتت مني شهقة:

- «هل جننتِ يا فائزة؟! قد يؤدي هذا إلى تسمُّمه وموته!

- أنا مستعدة للتحالف مع الشيطان من أجل أن يعود زوجي لي ولا يُفكِّر في الزواج عليَّ. لقد أقسم لي القسيس باسم المسيح

أن زوجي سيكره سماع اسم هذه المرأة وسيُصبح مثل الخاتم في أصبعي.

- أفرضي أن أمنيتك لم تتحقق! بالتأكيد سيكون أكبر مقلب أخذته في حياتك».

برمت شفَّتها السفلى:

- «أتعرفين يا فاطمة؟ لقد اكتشفت أن الزواج أكبر خدعة في تاريخ البشرية. يُقيِّد عواطفنا. يجعلنا عبيداً لهذه المؤسسة الفاشلة. ندور في ساقيتها ليلاً ونهاراً ونُضحِّي من أجلها بكل شيء لنكتشف في النهاية أننا ضيَّعنا شبابنا من أجل لا شيء! لا أريد استعادة زوجي لأنني لا أزال أحبه، بل لأن كرامتي تأبى أن يقول الناس إن هناك امرأة ثانية نجحت في سلبه مني!

- أنتِ تقولين هذا الكلام لأنك محبطة مما جرى لك. غداً عندما تعود المياه إلى مجاريها مع زوجك ستتراجعين عن هذه الآراء الغريبة. الزواج يوفِّر للمرأة الاستقرار العاطفي. كما أنه الطريق الأمثل الذي يمنحك لقب أم. لقد كنتُ امرأة سعيدة مع زوجي وعشتُ معه سنوات حلوة. لم يتسرَّب الملل إلى حياتي طوال فترة عشرتنا. كما أن وعد، ابنتي، هي أجمل منَّة وهبني الله إياها».

علَّقت مستهزئة:

- «ميزة الزواج الوحيدة أنه يجعلك في مأمن من نظرات النساء اللواتي ينظرن بريبة إلى كل امرأة مطلَّقة أو من كان حظُّها عاثراً وتمَّ تسجيل اسمها في قائمة العوانس. ثم ما أدراكِ أن زوجك لم يخنكِ طوال سنوات زواجكما؟ الرجل أشهر طفل مُدلل في تاريخ البشرية. أتعرفين لماذا؟ لأنه يتململ سريعاً من لعبته وإن كانت باهرة الجمال. نحن النساء بالنسبة للرجال مجرد دُمى سرعان ما يحطمونها ليجرِّبوا دُمية أجمل وأشهى وأصبى.

- الرجال ليسوا سواسية في تصرفاتهم!

- توقَّعتُ أن يكون هذا ردَّك. أنت يا فاطمة تقولين هذا الكلام لأنك لم تدخلي مرحلة الخطر في زواجك. لو تعدَّى زواجك سنواته العشرين، للعنتِ الزواج واليوم الذي تزوَّجتِ فيه. لوجدتِ غيمة الضجر تحوم حول رأسك ليلاً ونهاراً. عموماً، أنا أحسدكِ. أتدرين لماذا؟ لأن الفرصة سانحة أمامك لتجرِّبي حياة زوجية أخرى مع جعفر أو مع رجل غيره».

شردتُ بذهني. قادتني عربة ذكرياتي صوب الماضي. تعوَّد زوجي دندنة أغنية طلال مدَّاح وهو يحلق ذقنه عند الصباح: «تِصدَّق ولَّا أحْلِفْلَكْ. عِجز بلساني أوصِفلكْ. نعيم الحب في وَصْلَكْ. وإنتَ كريم من أصْلَكْ». تسلّل الشك لقلبي ذات صباح. قلتُ له ضاحكة: «لمن تغني هذه الأغنية يا أبو وعد؟!». استغرق في الضحك حتى

بانت نواجذه وشدَّني من ذراعي قائلاً: «تعالي انظري في المرآة حتى تعرفي لمن أغنِّيها».

هزَّتني فائزة من كتفي:

- «هه! إلى أين ذهبتِ أيتها الحالمة؟!

- لا يا فائزة. زوجي لم يُفكِّر في خيانتي يوماً. رحمة الله عليه ألف مرة».

* * * * *

أهداني جعفر خلال إحدى زياراته عقداً من اللؤلؤ معلق بوسطه قلب متوسِّط الحجم، مطعَّم بالأحجار الكريمة. أصرَّ على أن يضعه بيديه حول عنقي. سألته:

- «لماذا اللؤلؤ تحديداً؟!

- كانت القطيف مشهورة في الزمن القديم بتجارة اللؤلؤ، قبل أن يخترع اليابانيون اللؤلؤ الصناعي. هذا لا يعني أن لؤلؤنا قد ذهبتْ أيام عزِّه. أؤمن بأن الغالي قيمته فيه يا حبيبتي. لقد رغبتُ في أن أُريكِ جانباً مُضيئاً من التاريخ الذي أنتمي إليه».

اعتاد جعفر كلَّما أتى إليَّ أن يُحضر معه كتاب جديد. كنتُ أحبُّ وضع رأسي على صدره والإصغاء إلى صوته الرخيم وهو يقرأ

لي مقتطفات منه. يقوم بتركه عند انصرافه، على وعد مني بأن أفرغ من قراءته ليُناقشني في محتواه في زيارته القادمة.

قلتُ له يوما بحدَّة: «كنتُ اسمع أبي يقول إن الشيعة يسبُّون أمَّ المؤمنين السيدة عائشة، التي لها مكانة كبيرة عند أهل السنَّة، بسبب موقفها من خلافة سيِّدنا علي، وبسبب تورطها في موقعة الجمل. وسمعتُ بأنكم تسبُّون أيضاً صحابة رسول الله!».

بان التأثُّر على وجهه، قال:

- «لا أنكر بأن هناك غلواً لدى بعض الفرق في مذهبنا الشيعي، لكن هذا لا ينفي أنه توجد أيضاً جماعات متطرفة في مذهبكم السنِّي!

- حسنا يا جعفر، سأوافقك الرأي. لكن ألا تحلِّلون زواج المتعة الذي فيه إهانة كبيرة للمرأة؟ هل الزواج يقتصر على ليلة أو ليالٍ محددة ويتبخَّر؟!».

ضحك بفتور قائلاً:

- «سبحان الله يا فاطمة. ألا يستهين مذهبكم السنِّي هو الآخر بحقوق المرأة؟! ألا يُوجد لديكم الزواج العرفي وزواج المسيار وزواج المسفار وزواج الفرند والويك إند؟! كل يوم يتفنن شيوخكم في إصدار فتاوى جديدة للزواج لا تُوجد أصلاً في شريعتنا

الإسلامية! أليست هذه الزيجات في باطنها دعارة مُقنَّعة وبخساً بمكانة المرأة وإهداراً لحقوقها؟!».

تلك الليلة، أحضر معه موسوعة كُتِبَ على غلافها الخارجي «القصص والحكايات، تجارب وحوارات يرويها الإمام الشيرازي»[1]. أخذ يشرح لي مقتطفات منه، قال:

«هل تعلمين أن الإمام الشيرازي وضع مكانة الكتاب في درجة واحدة مع رغيف الخبز؟ يرى أنَّ من الضروري أن يكون الكتاب أرخص من رغيف الخبز لأن الكتاب معناه توعية الأمَّة وتثقيفها. التوعية تُساوي الحرية، والحرية هي ما يصنع الخبز والتقدم والازدهار». قاطعته بعصبية: «لن تفلحَ يا جعفر في تشييعي!». رشقني بنظرة دهشة، قال: «لا أعرف ماذا حلَّ بكِ اليوم! لكن أريدكِ أن تعرفي أنني لم أفكِّر لحظة في دفعكِ إلى ترك مذهبك السنِّي. كما لا أنوي التخلي عن مذهبي الشيعي من أجلك. أتعرفين ماذا أتمنى يا فاطمتي؟ أن أضع مذهباً جديداً يشيع بين الناس، أسمِّيه «مذهب الحب»، لكون الحب من مبادئه الأساسية تجاوز المظاهر الخدَّاعة، ولأن للحب طاقة جبارة تقهر كل من يعترض طريقه، وأخيراً لقدرته السحرية على نشر وثيقة التسامح».

* * * * *

(١) موسوعة «القصص والحكايات، تجارب وحوارات يرويها الإمام الشيرازي». جمعها بشير البحراني وأزهار المرزوق، دار العلوم، بيروت، الطبعة الثانية، ص٤٤.

خضعت صديقتي رابحة لعملية شفط الدهون من ردفيها، وقامت بتكبير ثدييها بحشوة السيلكون. قالت ضاحكة عند زيارتنا لها في المستشفى: «لقد أردتُ كسر عينَي زوجي. لن يستطيع بعد اليوم أن يُشيد بنهدَي الممثلة «الفلانية» أو الفنانة «العلانية»! ولن تجحظ عيناه كلما ظهرت واحدة من الفنانات في فيديو كليب راقص. سأقول له بفخر إنَّ لديه زوجة تملك صدراً شهيَّاً، حتى أجمل من صدور اللواتي يشاهدهن على الشاشة. سيُعطيه على الأقل إحساساً بالعظمة لكونه الوحيد الذي يملك حق رؤيته عارياً و«تفعيصه» بيديه!».

قالت عواطف: «أنا أؤمن بأن الراجل إذا كان بطبعه «بصباص» حَيبحلق في كل من هبَّ ودب ولو كانت مرته ملكة جمال العالم. والراجل اللي يحب مرته ما حَيشوف غيرها ولو كانت قبيحة الشكل ولها جسم زي البقرة!».

علَّقت فائزة: «والله لو عملتيله البحر طحين ما يملا عين الراجل إلا التراب! بعض الرجال يستحلون الحرام ولا أدري لماذا!».

علَّقت إيمان بنبرة ساخرة: «أنا شخصياً ما أقدر أحكم على آرائكم، لكن لمَّا يرزقني الله بعريس إلّلي هوَّه حسباً ونسباً، سأُدلي أنا كمان بدلوي».

قالت فائزة وهي مستغرقة في نوبة ضحك: «لمَ أنت صامتة يا فاطمة؟! لمَ لا تُعلِّقين على حديثنا؟ أين أنتَ يا جعفر لترى كم هذه المرأة غارقة حتى أذنيها في حبِّكَ؟!».

لم أعلِّق. كنتُ سارحة في عبارة جعفر: «يوم تُصبحين زوجتي سأمنعك من الاستحمام. أريد أن أشمَّ رائحة إبطيك، خصلات شعرك لحظة استيقاظي من النوم، ومساءً لحظة خلودي إلى الفراش. رائحة أنوثتك مميَّزة تُثير غريزتي. أنت مثل الزهرة اليانعة التي تُفرز مسامُّها أطيب أنواع المسك والعنبر.

(٤)

تحضرني صور طفولتي بوضوح كلما شعرتُ بأطياف الوحدة تغرس أظافرها في جلدي. أتسلَّى ببعثرة مشاهدها كي تُطفئ حنيني إلى الأيام الخوالي. لم تسنح لي الفرصة لأكتب بيدي فصول مراهقتي. نضجتُ قبل أواني. دلقت براءتي في حُجر زوجي لحظة خطوت عتبة منزله وتخلَّيتُ عنها كاملةً يوم أنجبت ابنتي وعد. كانت أمي تقول إن من الأفضل للمرأة أن تتزوج وتُنجب مبكراً كي لا يظهر العجز عليها عندما يشبُّ أبناؤها ويُصبح لديها أحفاد يلعبون من حولها. يحزُّ أحياناً في نفسي أنني لم أعرف والديَّ معرفة عميقة. كانت علاقتي بهما يشوبها التعتيم. لم تجمعنا ذكريات مشتركة كثيرة. كانت حياتي قصيرة تحت سقف بيت أبي، فلم أتعرَّض للشد والجذب على أيديهما. أحسد أخي إياد لكونهما صبَّا جلَّ اهتمامهما عليه. خروجي من تحت عباءتهما باكراً جعلهما قريبَين من أخي إلى حد الالتصاق.

لم أجرؤ يوماً على سؤال أمي عن نوع العلاقة التي تربطها بأبي. هناك خطوط حمراء كان ينعقد عندها لساني. يتملكني الفضول أحياناً. أتمنى لو أعرف مقدار حبِّها لأبي؛ إن كان يندرج تحت مسمَّى الحب نفسه الذي حملته لعماد. موت أمي قشع الغشاوة عن عينيَّ. حزن أبي كثيراً على وفاتها. بعد رحيلها المفاجئ علَّق صورتها على حائط غرفة نومه. رفض أن أفرغ دولابها من أشيائها. سمح لي بالتصدُّق بملابسها فحسب. تناهى لي أن بين أقاربنا من كان يُحرِّض أبي على الزواج بأخرى ترعى شؤونه. وضعتُ يدي على قلبي. دبَّت الغيرة في أعماقي. خِفتُ أن يستجيب أبي لإغراءاتهم. أوصد أبي الأبواب جميعها في وجوههم. رفض أن تحلَّ امرأة أخرى محلَّ أمي. لم يخن ذكراها. آثر تكملة المشوار وحيداً. غادر الدنيا بعد وفاة أمي بسنة واحدة. فيما كنت أفضُّ حاجياته وجدتُ صورة أمي مدسوسة تحت وسادة نومه.

* * * * *

لا أعرف لماذا ذهبتُ إلى جناح جدَّتي يوم وفاة أمِّي. كنتُ أرغب في أن أرى ما تخبِّئه تحت جفنيها، هل كان التشفِّي يسكن في عينيها أو كان يطلُّ منهما حزن حقيقي! كانت دائمة الشجار مع أمي. تتهمها طوال الوقت بأنها سلبتها ابنها الوحيد على الرغم من أنها هي التي اختارتها زوجة له. كنتُ ألمح أمي تنزوي في غرفتها. تبكي حيناً،

وتحتدُّ على أبي حيناً آخر طالبةً إليه في ثورة غضبها أن يستأجر لجدَّتي سكناً خاصاً بها. كانت تقول إنها لم تعد تُطيق كلام جدَّتي الجارح. كان أبي يُطيِّب خاطرها. يرجو منها أن تصبر وتتحمَّل، فمن غير الممكن أن يترك أمه فريسة الوحدة، وليس لها ابن سواه. لم أرَ أمي في حالة انسجام مع جدَّتي إلا في مناسبات قليلة، كالأعياد. كانت هدنة مؤقتة يعمُّ الهدوء خلالها أرجاء البيت وينعم أهله بالسكينة، ثم تشتعل الحرب من جديد.

بعد زواجي، كنتُ أسأل أمي عندما أقوم بزيارتها إن كانت جدَّتي كفَّت عن زعيقها. كانت تتنهد قائلة: «اللي فيه طبع عمره ما يتغيَّر يا بنتي». توقفت جدَّتي عن الشجار قبل رحيل أمي بسنتين. دخل أبي عليها كعادته عند مطلع كل صباح. وجدها قابعة على أريكتها الخشبية العتيقة، على شرفتها المطلَّة على الحديقة، نظراتها شاخصة صوب السماء غير آبهة بضوء الشمس القوي الذي يُعاكس عينيها. طرحتُها منحسرة عن رأسها. شعرها المغطَّى بالشيب مبعثر على وجهها. ألقى عليها تحية الصباح وقبَّل يديها وجبينها. نظرت إلى وجهه بعينين بلَّوريَّتين قائلة: «من أنتْ؟». أدرك لحظتها أنه فقد أمه إلى الأبد بعد أن هوت ذاكرتها في وادي النسيان وأصابها مرض الخرف. أحضر لها منذلك الوقت خادمة ترعى شؤونها. بعد وفاة أبي دخلتُ عليها لأطيِّب خاطرها. ابتسمت في وجهي. حمدتُ الله على أنها لم تشعر بوجع الفراق.

تعرَّض إياد لهزَّة نفسية قوية بعد وفاة والدينا. ترك ذلك فجوة عميقة في حياته. قال لي دامعاً: «رائحتك تُذكِّرني بأمي». يومها أخذته في حضني وانخرطنا معاً بالبكاء. اقترحتُ على أخي أن تعيش جدَّتي معي في البيت. لم يُمانع. خصَّصتُ لها غرفة بجوار غرفة وعد. عندما كنت في سن صغيرة كنتُ أنفر من جدَّتي. تكوَّنتْ لديَّ قناعة بأنها سبَّبت شيئاً من التعاسة لأمي. أتهرَّب من تقبيلها. تسبُّني قائلة لأبي: «ابنتك لا تحبني، مثل أمها». يطوي غضبها قائلاً: «أمي! فاطمة لا تزال صغيرة على معرفة مشاعر الكره».

الغريب أنني أحببتُ جدَّتي في أعوامها الأخيرة. اعتدتُ على دخول غرفتها كل صباح. أحمِّم جسدها المهترئ بيديَّ. أسرِّح شعرها الأبيض، أجمعه في ضفيرة صغيرة خلف ظهرها. تبتسم في وجهي. استنشق بنشوة عبير الماضي من رائحة جلدها العتيق، من لمسة يديها المغطَّاة بالعروق البارزة، من نظرات عينيها الغارقتين في بحيرة العدم. كنتُ بين حين وآخر أدسُّ قصداً بين يديها صورة أبي. أراها تتأملها صامتة. يُخيَّل إليَّ في بعض الأحيان أنني ألمحُ دمعات متيبسة تقف شامخة بزوايا عينيها. أصدِّق لحظتها ما يُقال عن أن الإنسان الغائب تحضره لحظات استيقاظ يتعرَّف خلالها على جميع أحبائه. ظلَّت جدَّتي على حالها ثلاث سنوات بعد موت أبي، ثم رحلت في صمت كما يموت العجائز. دخلتُ غرفتها ذلك الصباح الندي. كانت مسربلة الجفنين. وجهها مُضيء مثل طفل حديث الولادة. قبَّلت جبينها

ويديها، وشممتُ رائحة جلدها للمرة الأخيرة. بعد دفنها، جمعتُ أشياءها القليلة في صرَّة صغيرة حشرتها بقعر خزانة ملابسي.

* * * * *

كنتُ في السابعة من عمري حين انتقلنا إلى بيتنا الجديد الذي اشتراه أبي في حي النزهة. قطنت بجوارنا في العام نفسه عائلة هندية. كان الأب يعمل في القنصلية الهندية، والأم تُدرِّس اللغة الإنكليزية في مدرسة حديقة الأطفال الخاصة بالبنات الكائنة بشارع فلسطين. كان لديهما ابن واحد يُدعى «عمران» يكبرني بعامين. وسيم الطلَّة. له شعر بنِّي غامق اللون، كثيف بلا تموجات، وغرَّة طويلة تُغطي جبينه الصغير. وقع نظري عليه للمرة الأولى يوم دقَّ جرس الباب. قالت الخادمة لأمي إن صبياً صغيراً يقف بالباب حاملاً طبقاً يُريد تقديمه إليها. كان الطبق عبارة عن «رز برياني بالدجاج» رغبت والدة عمران في أن يكون وسيلتها للتعارف. جهلُ أمي التام باللغة الإنكليزية دفع أمه إلى مخاطبة أمي بعربية متكسرة المخارج. كان عمران يحضر دوماً بصحبة أمه. تأتي في كلِّ مرَّة حاملة طبقاً مختلفاً. عشقتُ أكلاتها. كنتُ أحبُّ تأملها. تجيء لزيارتنا وهي مرتدية الساري الهندي بألوانه المزركشة، وقد تدلَّت ضفيرة شعرها الفاحم السواد خلف ظهرها. كانت لها رائحة مميزة تخترق فتحتَي أنفي كلما أحنت جذعها العلوي لتقبيلي أو حملي بين يديها. سرعان ما نشأت صداقة سريعة بيني

وبين عمران. كان يُحضر عجلته إلى بيتنا. أركب خلفه وألفُّ ذراعَيَّ حول خصره، وندور في أرجاء الحديقة. افتقدتُ عمران كثيراً بعد انتقال والده للعمل في البحرين. قبَّلني على شفتيَّ قبلة سريعة يوم جاء لوداعي. قدَّم لي دبَّاً صغيراً أبيض اللون بعد أن كتب على ناصية رأسه اسمي واسمه باللون الأحمر بأحرف لاتينية بارزة. كانت المرة الأولى التي أتذوَّق فيها ريق ذَكَر غريب عني. كان لطعم قبلته الخاطفة مذاق مختلف عن قبلة أبي الحانية. علَّقتُ هديته عند طرف سريري. مع مرور السنين اختفى تذكاره مع كثير من حاجياتي القديمة. تتسرَّب ذكرى عمران في بعض الأحيان إلى خياشيمي، كلما شعرتُ برغبة في تناول الطعام الهندي. أقسم ضاحكة لمن حولي أن طعام أم عمران صديق طفولتي مذاقه أحلى ألف مرة من الأطباق التي تقدِّمها المطاعم الهندية الفاخرة.

جدَّة

وليكن...
لا بدَّ لي أن أتباهى بكَ يا جرح المدينة
أنتِ يا لوحة برقٍ في لياليا الحزينة
يعبس الشارع في وجهي
فتحميني من الظلِّ ونظرات الضغينة
سأغنِّي للفرح
خلف أجفان العيون الخائفة
منذ هبَّت في بلادي العاصفة
وعدتني بنبيذ وبأقواس قزح

قصيدة «وعود من العاصفة»
محمود درويش

(١)

أيام قليلة ويحلُّ عيد الأضحى. الأجواء الروحانية تغمر روحي بالسكينة. تُضفي عليها مزيداً من الطمأنينة. أنصتُ إلى العبارات التي يُرددها الحجيج وتبثها الإذاعة والتلفاز يومياً مع دخول شهر ذي الحجة: «لبَّيك اللهم لبَّيك. لبَّيك لا شريك لك لبَّيك. إن الحمد والنعمة لك والمُلك. لا شريك لك لبَّيك». أزفر زفرةً طويلة. أول عيد أضحى يُقبل عليَّ من دون أن تكون ابنتي معي. في مثل هذه الأيام من العام الماضي تزوَّجتْ وعد. آه! كم أحس بشوق جارف إليها! ضمُّها في أحضاني! الإنصاتُ إلى حديثها ووقع خطواتها داخل البيت! غدا عادةً عندي التلصص على حاجياتها، الدخول إلى غرفتها كل صباح، استنشاق عبير رائحتها في ملابسها المعلقة في دولابها، لمس زينتها المرصوصة على تسريحتها، تأمُّل صورها المعلقة على جدران حجرتها! هاتفتني منذ أيام، قالت لي: «اشتقتُ إليك كثيراً يا أمي. كل عام وأنتِ بخير يا أعزَّ الناس».

حلول العيد الكبير يُهيِّج ذكرياتي. أنزلق بيسر إلى عمق واديها، تحضرني مقاطع منها. كان والدي يحرص سنوياً على أداء مناسك الحج. وفي كل مرة أسمع اعتراضات أمي. كانت ترى أن فريضة الحج لا تعني القيام بها كل سنة! يردُّ عليها أبي بأنه لا يُوجد ما يمنعه من تكرارها ما دام الله يُغدق رزقه من أوسع أبوابه. اعتادت أمي أن تُفصِّل كل عام ثوبين جديدين باللون الأبيض لي ولها، وتشتري وشاحين وجوارب بيضاء لكلينا. تقوم بالتصدُّق بهما بمجرَّد عودتنا.

في صغري لم آخذ فكرة الحج بجدِّية. كنتُ أحسُّ بغبطة كأنني ذاهبة في رحلة ترفيهية. أمي تتركني على راحتي؛ أراقب بفضول منظر الحجيج في عرفة. حين أتعب من الجري طوال النهار بين الخيام، أكوِّر جسدي الصغير في حجر أمي. أنصتُ لأحاديث النسوة المجتمعات داخل خيمتنا. أغطُّ في النوم. أستيقظ على صوت أبي عند غروب الشمس، منادياً أمي قائلاً إن الوقت قد حان للتحرُّك صوب مزدلفة. يحملني أبي على كتفه. يضعني في سيارته «الجيمس». يغلبني النوم.

أستيقظ صبيحة اليوم التالي في مِنى على صوت مكبرات المساجد مهللة بحلول العيد. «الله أكبر. الله اكبر. لا إله إلا الله. والله أكبر. الله أكبر ولله الحمد». أصرُّ على مرافقة أبي لرؤية خروف العيد لحظة ذبحه. أجزع وأنا أرى دمه الفائر يتدفق من نحره. تجحظ حدقتاي. تكادان تنفلتان من محجرَيهما. أتشبَّث بأبي. أتوارى بوجهي المرتهب

خلفه. أسأله دامعة وقفص صدري يعلو ويهبط: «لماذا نذبح الخروف في العيد؟». يبتسم. يُربِّتُ على كتفي قائلاً: «غداً تكبرين وتفهمين. هي سنَّة أخذناها عن جدِّنا الأول إبراهيم عليه السلام». أنصتُ ببلاهة إلى عباراته. عند خلودي للنوم، تحضرني صورة الخروف المذبوح وهو يتمرَّغ في دمائه. أهرع إلى أمي. اختبئ في أحضانها.

بعد أربع سنوات من زواجي قمتُ بأداء فريضة الحج مع عماد. تركتُ وعد طفلة رضيعة برعاية أمي. قالت لي: «لا تقلقي على وعد. سأضعها في عيوني. هذه حجَّتك الحقيقية. حجَّة الفتاة مع زوجها واجبة. يجب أن تلتزمي بتطبيق كافة شعائرها». حجَّاتي المتكررة مع والديَّ كانت أمتع بكثير. جاهرتُ بانطباعي لأبي. قلتُ له ذلك ضاحكة حال عودتي. نظر بحنوٍّ صوبي. مسح شعري بكفِّه.

توقَّف أبي عن الذهاب للحج بعد أن أصابه التهاب مزمن في المفاصل. ذكرياتي هي أيضاً تعرَّضت لوباء الحزن بعد رحيله. كل شيء تغيَّر بعد أن ودَّع أبي الدنيا. صرتُ كلما هزَّني الشوق إليه أنقِّب عن آثاره في جلد أخي إياد. تدمع عيناي. حينها أؤنِّب نفسي؛ كيف حنِقتُ يوماً على أخي وتمنيتُ موته لأتحرر من قيود أوامره الصارمة؟! استغفر الله في سري، وبقلب خاشع أطلب إليه العفو والمغفرة على سوء نيتي.

لازمتني عادةُ قضاء أيام العيد في بيت إياد. أصطحب معي وعد. نظلُّ نتسامر طوال الليل مع زوجته وابنتيه. نستحضر مشاهد الماضي. نضحك على بعضها إلى أن يحين وقت صلاة العيد. يأخذنا في سيارته إلى مسجد الحي. نعود بعدها إلى منزله لتناول طعام الإفطار. أقفلُ عائدة إلى بيتي. هذا العام تمنَّيتُ لو أستطيع تمضية العيد مع جعفر. آثرتُ المحافظة على عادتي. خروجي عن المألوف كان سيفتح أمامي قائمة من التساؤلات أنا في غنى عنها.

(٢)

كانت الساعة تُشير إلى الخامسة صباحاً. استيقظتُ على صوت الرعد يُزمجر في الخارج. لم نكن معتادين في جدَّة على هذا الصوت الجهوري يخترق مسامعنا بهذه الحدة. طقس جدَّة على الدوام رؤوف مثل قلوب أهله، لا يعرف التصنُّع، ولا يغوى التقلبات! كنا في أواخر شهر نوفمبر ٢٠٠٩. كان الطقس يُغري للتسكُّع والجلوس في المقاهي المفتوحة. تزايدت نقرات المطر على نافذتي. تملَّكني القلق. هرب النوم من مقلتيَّ. تركتُ فراشي. أيقظتُ السائق والخادمة من نومهما. طلبتُ إليهما تفقُّد الحديقة. أوصيتهما بترك «بلاعات» الأرض مفتوحة تحسُّباً لأي طارئ. وقفتُ عند باب البيت الداخلي أراقب عن كثب هذا المشهد الأخَّاذ. كان البرق يضيء عنان السماء. حفيف الأشجار يُصدر موسيقى شجيَّة تُنشِّط الأفئدة المهمومة. زخَّات المطر وهي تُعانق الأغصان بشبق هيَّجت ذكرياتي. في صغري كنتُ أغافل أمي، أخرج إلى حديقة منزلنا، ألعب تحت المطر بقدمين عاريتين.

كانت تنهرني، تهددني بحرماني من مصروفي إن أنا كرَّرت فعلتي. لم تمنعني إصابتي بنزلات البرد الشديدة من معاودة التجربة بحلول فصل الشتاء التالي. كنتُ ألمح أمي تقف عند النافذة، ترفع يديها بالدعاء بأن يحفظ الله كل أحبائها. تُردد لمن حولها أن أبواب السماء تُفتح عن آخرها وقت انهمار المطر، وأن الله يستجيب لحظتها لدعوات الناس.

شعرتُ بقشعريرة برد تسري في جسدي. لا أدري لماذا لم يعد المطر يُغريني للَّعب معه! لمَ لم أعد أنساق خلف رعونته؟! أذكر أنني في السنة الأولى لزواجي سافرتُ مع عماد إلى مدينة الإسكندرية لقضاء بضعة أيام. كان متحمِّساً ليُطلعني على جزء من ذكرياته فيها إبان دراسته. نزلنا في فندق فلسطين. كنا في نهاية فصل الشتاء. لم أكن معتادة على هذا الطقس البارد المتقلِّب المزاج. حديقة قصر المنتزه أغرتني للمشي في ساحاتها الشاسعة. شعرتُ بتلذذ والمطر ينهمر فوق رأسي. حاول عماد أن يحميني بالمظلَّة التي كان يحملها. رفضتُ بشكل قاطع. سألني متعجِّباً: «هل هناك سرٌّ دفين بينك وبين المطر؟!». أجبته حينها والماء يتقاطر من خصلات رأسي ومن ملابسي: «المطر يُشعرني ببهجة الحياة». أُصِبتُ بنزلة برد شديدة مصحوبة بسخونة عالية. اضطررنا إلى المكوث في غرفتنا خلال الأيام المتبقية لنا. قال لي عماد معاتباً: «عنادك وعشقك للمطر أضاعا علينا فرصة الاستمتاع بأجواء الإسكندرية».

أقفلتُ باب البيت. عدتُ إلى حجرتي. اندسستُ في فراشي. تدثَّرتُ بلحافي. رحتُ في النوم. حلمتُ ليلتها حلماً غريباً. كنت أقف وسط البحر والموج يتعالى من حولي، وظلمة حالكة تفترش السماء. زعقت بملء صوتي. ناديتُ على جعفر. لم يكن له أي أثر. كان هدير البحر يطغى على صياحي. فجأة وجدت نفسي أغرق. الماء يُحاصرني من جميع الاتجاهات. استيقظت فزعة. تقلَّبت على سريري. استعذت من الشيطان. نظرت إلى ساعة الحائط، كانت تُشير إلى الثانية بعد الظهر. ناديتُ الخادمة. نهرتها لتركي نائمة كل هذا الوقت. أخبرتني أنها حاولت إيقاظي عدَّة مرّات. أقسمتْ بأنني كنتُ في كل مرَّة كنتُ أشير لها بيدي أن تتركني. كنت أشعر بصداع شديد. أحسست بالحاجة إلى حمام دافئ.

الساعة السادسة والنصف مساءً رنَّ هاتف المنزل. كان أخي إياد على الخط. قال بنبرة جزعة: «أردتُ الاطمئنان عليكِ. الحمد لله أنك في البيت. لا تخرجي. الدنيا مقلوبة في الخارج. افتحي التلفاز». هرعت صوب غرفة المعيشة. أدرت الجهاز. لم أصدِّق عينيَّ وأنا أرى جدَّة تغرق. كانت الصور تُظهر تقدُّم السيل بسرعة جنونية نحو حي قويزة، طريق الحرمين السريع، حي الجامعة، الرويس، نفق طريق الملك عبد الله. بكيت بحرقة. دعوتُ الله أن يرحم قاطنيها.

كنا في يوم «التورية»[1]. العيد يتأهَّب ليحلَّ ضيفاً علينا. لم يكن عيدنا عيداً. كانت أيام جنائزية. آه! بأي حال عدتَ يا عيد؟! الأثواب الجديدة المعلقة انتزعتها المياه من المشاجب وأخذتها في طريقها. عطر العود الذي كان مرصوصاً على الرفوف ينتظر الالتصاق بجلد صاحبه، ذاب وسط مياه أصابتها لوثة جنون قاتلة. أثواب الأطفال الزاهية الألوان فقدت رونقها وتلطَّخت بالطين بعد أن جرفتها السيول معها.

جاءني جعفر مساء اليوم التالي للاطمئنان عليَّ. هاله وجهي الذي يعلوه الاصفرار. كأنني تعرَّضتُ لمرضة شديدة. ارتميتُ على صدره لحظة قدومه. لم أتمالك نفسي. أخذتُ أزعق بملء صوتي. قلتُ له: «من هو المجرم الحقيقي؟! من الملام على ما جرى؟!». تأملني بعينين حزينتين، قال:

- «كلنا مسؤولون يا فاطمة، أتعرفين لماذا؟ لأننا لا نعرف كيف نحمي أحباءنا. لا يكفي أن تُعلني حبك أمام الملأ حتى يصدِّق الغرباء أنك صادقة في مشاعرك. الحب يمنحك القوة لكي تحمي من تُحبين بكل ذرَّة في كيانك. منذ اللحظة التي دخلتِ فيها قلبي صرتُ مسؤولاً عن هذا الحب. لا أسمح لمخلوق في العالم بأن يلمس شعرة من رأسك أو يُحدث ندبة في جسدك.

(١) هو اليوم الذي يسبق يوم عرفة. سُمِّيَ بهذا الاسم لأن الناس كانوا يرتوون فيه من الماء في مكَّة ويخرجون إلى مِنى.

- أحسُّ بالألم يعصر فؤادي. كيف يعجز وطن عن حماية أبنائه، رغم أواصر المحبة التي تجمع بينهما؟!

- لا تُقحمي الحب في ما جرى لمدينتك. الحب براء من هذه الجريمة النكراء. الفاعلون الذين كانوا سبب وقوع هذه المصيبة لم يحبُّوا وطنهم، بل أثبتوا عجزهم عن الإخلاص له. استغلوا طيبة قلبه وتسامحه معهم ليسلبوه كل ما يملك، مستفيدين من عدم استطاعته التحدُّث والتعبير عمَّا يجري من خلف ظهره».

كنتُ أنصت له بانبهار وهو يتحدث. أتأمل بإعجاب شعاع رجولته الذي يُطل بقوة من نافذتَي عينيه. ازددتُ التصاقاً به. إلحاح الرغبة زادني شبقاً. خجلتُ من نفسي! كيف يُمكنني أن اشتهي وصاله، وعروقي تنزف كمداً على ضحايا سيول جدَّة؟! كيف تأتيني الجرأة لرمي نفسي في أحضانه، وقلبي يئنُّ وجعاً على أبناء مدينتي؟! نداء الشوق حثَّني على دلق ألمي في بحيرة عالمه. أمضينا ساعات في إشباع سُعار جوعنا امتزج خلالها عطر عوده الشرقي بعطر Giorgio Armani الذي يحبُّ شمَّه على جلدي. فاحت في حنايا غرفتي رائحة انصهار جسدينا. جعلتني أتمرَّغ لذةً طوال الليل بين ذراعَي جعفر.

(٣)

حدثان متناقضان هزَّا مشاعري، تواكبا مع وقوع «أربعاء جدَّة الأسود» كما سمَّته الصحافة. طلاق فائزة صديقتي عصرني كمداً. بكتْ على صدري يوم استلمتْ ورقة طلاقها. كانت حزينة على عمرها الذي أهدرته مع زوجها. أخبرتني أنها عثرت على وثيقة زواجه في درج مكتبه. عندما واجهته بحقيقة زواجه لم يُنكر. خيَّرته بينها وبين الأخرى. لم يتردد في اختيار الثانية على الفور. قالت لي بنبرة هازئة: «أخبرني أنه لا يُريد أن يظلمني. أحبَّ أن يُصبح عادلاً لحظة تملُّصه من حياتي! كتب باسمي «الفيلا» التي عشنا فيها ربيع عمرنا وكبر فيها أبناؤنا. تعهَّد بأن يُرسل لي أول كل شهر مصروفي الشهري، ثم أخذ حقيبته ومضى. زهرة شبابي التي أفنيتها معه أسقطها من حساباته! ثمن عشرتي معه تحوَّل إلى مجرَّد حوائط «إسمنتية» وحفنة من ورق البنكنوت! هذا كل ما لي عنده. تاركاً وراءه سياط الذكريات تُلهب ظهري وتقضُّ ضرباتها كل ليلة مضجعي».

حرْتُ ما أقول لها! تواترت الأوجاع على قلبي. حاولتُ مدارة غيوم اللوعة السابحة في أرضية عينيَّ فلم أفلح. أحياناً كثيرة نقف عاجزين عن التصدي لجحافل الفجيعة وهي تقتحم أسوارنا وتسلبُنا راحة بالنا. نستعطفها أن ترأف بحالنا، فتستخفُّ بضعفنا، ناظرة نحونا بعيون يتطاير منها الشرر.

الحدث الآخر أخمد بعض الشيء صهاريج الألم في أعماقي. تمَّ عقد قران إيمان على زميل لها بالمستشفى التي تعمل بها. سألتها «لماذا أردنيُّ الجنسية؟! ألم يكن من الأفضل أن تقترني برجل من بلدك؟».

قالت باستخفاف: «كأنكِ يا فاطمة لا تعرفين طبيعة رجالنا! إنت أُمِّك داعيالك لكونك التقيتِ برجل مثل جعفر أعلن أمامك منذ اللقاء الأول تسامحه مع ظروفك وتغاضيه عن عمرك. أغلبية رجالنا لا تغريهم نساء وطنهم. يبحثون عن فتيات لم يدخلن عقدهن العشرين ليُنشِّطوا بهنَّ فحولتهم التي أخمدتها أمراض العمر ودكَّتها ضغوط السنين! وإلا كيف تفسِّرين هرولتهم للزواج من قاصرات بحجة أنه مُباح في شريعتنا! مع هذا لا تظنِّي أن أختك مُجبرة لا بطلة، كما يقولون في أمثالنا الشعبية، بل العكس هو الصحيح. أحسُّ بأنني ملكة متوَّجة. امرأة محظوظة لأن نصيبي كُتب مع هذا الرجل».

توقفتْ فجأة عن الكلام. سرحت بنظراتها إلى البعيد. بلعت ريقها متابعة: «سأخبرك سرَّاً لم أُطلع عليه أحداً من قبل. الجميع يعتقد

أنني امرأة جامدة المشاعر لم تحرِّك الريح أجنحة قلبها. لقد ذقتُ طعم الحب واكتويتُ بناره.

كان هذا أثناء دراستي في أميركا. كان شاباً أميركياً نابغاً. توقَّع له الجميع مستقبلاً باهراً. في البداية كان كل ما يربط بيننا زمالة دراسة. لا أعرف متى اكتشفتُ أن هذا الرجل قد توغَّل في أحشائي. استيقظتُ ذات يوم لأجد نفسي لا أستطيع العيش بدونه. ليلة حفل تخرُّجنا صارحته بحبِّي. أتذكَّر ذلك اليوم جيداً. قال لي: «أنا أيضاً أحببتك، لكنك من مجتمع مُغاير لمجتمعي كلياً. لا أريد أن أخلق بيدي إعاقات تشغلني عن بناء أحلامي. تعودتُ دوماً أن أحتكم لعقلي في جميع أمور حياتي. غداً تعودين إلى وطنك وتتزوجين وتتلاشى صورتي تدريجيًّا من ذاكرتك، لا بل ستجدين مع مرور الزمن صعوبة في تذكُّر تقاسيم وجهي». ظللتُ سنوات بعد عودتي أبكي فراقه بحرقة، إلى أن تبخَّر كلياً مع انشغالات الحياة».

* * * * *

تك. تك. تك. أحياناً تروح حدقتا عينيَّ وتجيئان مع بندول الساعة الكبيرة المعلقة على جدار غرفة الجلوس في بيتي. تراودني فكرة مجنونة في تحريك عقاربها وإعادتها إلى الوراء عقداً من الزمان. كم تمنيتُ لو أنني التقيت جعفر في زهوة شبابي، أو أن أمي أنجبتني في زمانه. أضحك ساخرة من خاطرتي المجنونة.

أذكر أنه في صغري جلبت لي إحدى قريبات أمي عند عودتها من القاهرة فانوساً صغيراً مزخرفاً بألوان زاهية. فرحتُ به كثيراً. كنت أيامها مأخوذة بفانوس علاء الدين السحري وحكاياته المشوقة التي كانت أمي تقصها عليَّ كل ليلة عند خلودي للنوم. كنت أنزوي في غرفتي وأحك فانوسي بأظافري، متخيلة أن الجنِّي سينطلق من سجنه قائلاً لي: «شبَّيكِ لبَّيكِ. أنا عبدكِ بين إيديكِ». آه! ليتني أستطيع الحصول عليه لأحقق أمنيتي المستحيلة.

بتُّ بين حين لآخر أقف أمام مرآتي أتفحَّص وجهي. أقترب عن عمد من وجوه صديقاتي. أتبيَّن ما اقترفه الزمن بحقِّنا. في مستهلِّ مراهقتنا، كنا نرسم فارس أحلامنا على الورق ونلوِّن ملامحه بالألوان المائية. كانت رابحة ترغب في أن يكون أبيض البشرة أزرق العينين. كانت عواطف تتمنى أن يمنحها الله زوجاً بوسامة عمر الشريف. كانت فائزة تضحك قائلة: «ليحضر على أي هيئة أو شكل. المهم أن يأتي والسلام. لا أريد أن أقضي حياتي عانساً وأموت قهراً من الانتظار، مثل عمَّتي فتحية التي ضمر جسدها كمداً في سن الأربعين بعد بلوغها قمَّة يأسها من أن يطرق رجل بابها ويفضَّ عذريتها الشائخة. ماتت في بيتنا وهي مُسجَّاة على سريرها».

كانت أمل تزعق بأعلى صوتها: «لن أتزوَّج إلا برجل غني يجوب بي العالم، يشتري لي كل ما أريده». عندما وقع لها ما وقع

قالت لي: «يجب ألَّا نأمن جانب القدر، وألَّا نخضع لإغراءاته مهما كانت سخية! الوثوق به كوثوق المرأة بشبابها الذي سرعان ما سيهرب من قبضتها. تُنادي عليه بأعلى صوتها، تترجاه ألا يتركها، لكنه يمضي غير عابئ بتوسلاتها».

إيمان هي الوحيدة التي كانت تطلعاتها مختلفة. تحلم باليوم الذي تُسافر فيه إلى أميركا لتكمل دراستها العليا. وضعت أمر نصيبها تحت رحمة القدر. أما أنا، فلم يكن يشغل فكري عريس المستقبل. كان عماد قد تمَّ التعاقد عليه كزوج من جهة عائلتينا بعد أن يفرغ من دراسته الجامعية.

هناك أحلام تود المرأة لو تقاعس القدر عن تحقيقها بعد أن تصفعها الخيبة بقسوة على وجهها. وهناك أحلام تظل المرأة متشبِّثة بها وإن أظهرت لها الدنيا خطأ اختيارها. وهناك أحلام تتأرجح في مخيِّلة المرأة بين منزلتَي الخطأ والصواب، فيفاجئها القدر بأن يفرد لها بساطه عن آخره.

تُعجبني عقلية صديقتي عواطف. منذ بداية زواجها اكتشفت أن هناك هوَّة سحيقة بينها وبين زوجها. لكل منهما تفكير مُغاير عن تفكير الآخر. اهتماماتها في واد واهتماماته في واد آخر. والأهم أنها أيقنت عجزها عن حبِّه. هضمت خيباتها. قررت أن تغامر وتركب القطار مع رجلها إلى نهاية المحطة.

سألتُها مرة بدافع الفضول: «كيف استطعتِ العيش مع رجل تُشاطرينه سريراً واحداً كل ليلة وتعطينه جسدك، وأنتِ لا تُحبينه؟!».

قالت: «جمعنا اهتمام واحد؛ حب الأطفال واحترام الحياة الزوجية. حملتُ في السنة الأولى من زواجي. كان من الممكن أن أطلب الطلاق، أن أبحث عن رجل آخر يُلهب مشاعري، لكن الفرحة التي أطلَّت لحظتها من عينيه عندما أخبرته بحملي جعلتني أوقن بأنه سيكون زوجاً متفانياً وأباً رائعاً. ليست كل البيوت يا صديقتي تُبنى على الحب، كما يقول الصحابي الجليل عمر بن الخطَّاب».

(٤)

قال لي جعفر: «يجب أن يكون لك دور في ما يجري في مدينتك. لا بد أن تحوِّلي حبَّكِ لمدينتك إلى فعل على أرض الواقع». كان أهالي جدَّة قد هبُّوا لإنقاذ مدينتهم. بدأ آلاف من الشباب والشابات بالتجمُّع في المركز الدولي للمعارض الكائن بطريق المدينة لمساعدة المتضررين من السيول. قررتُ الانضمام إليهم. أظهرتْ فائزة هي الأخرى حماسةً، قالت: «ليست مدينتك وحدك. جميعنا لا نختلف على حبِّها». وتابعت بنبرة هازئة: «تبغيني آكلها لحم وأرميها عضم! صدقيني يا فاطمة. فجيعة الناس خفَّفت كثيراً من إحساسي بالقهر والظلم. ما جرى لي أمر بسيط مقارنة بالمصائب التي تعرَّض لها أناس أبرياء». انضمَّت إلينا رابحة وعواطف، وكذلك إيمان بعد أن قررت تأخير زفافها حداداً على ضحايا مدينتها. كنا نخرج صباحاً باتجاه المركز. ننغمس مع بقية المتطوعات والمتطوعين في تجميع المعونات، من ملابس ومواد تنظيف ومأكولات، التي يتبرَّع بها فاعلو الخير من

الأُسر الجدَّاوية. يقوم الشباب بتعبئتها في شاحنات كبيرة وتوصيلها إلى مساكن الأسر المنكوبة. نحن الخمسة كنَّا في حالة ذهول. فكرُنا مُشتَّت. قلوبنا تبكي كمداً. نتبادل نظرات ينبثق منها الغضب. نكزُّ على أسناننا. على طرف ألسنتنا سؤال حائر: كيف يحدث هذا في بلد نفطي؟! كيف تقع هذه المآسي على أرض سبَّاقة دوماً إلى نجدة المنكوبين في كافة أنحاء العالم، ثم تعجز عن حماية فلذات أكبادها؟! نُواري حيرتنا في جوانبنا. تتخضَّب وجوهنا خجلاً من آثام أهالينا.

تم إخلاء حي السامر وحي المنار ومجمَّع الأمن الداخلي وحيَّ التوفيق بعد ارتفاع منسوب المياه فيها واختلاط مياه الشرب بمياه الصرف الصحي. ما تناقلته وسائل الإعلام كان أقلَّ بكثير مما رأيته بأمِّ عيني. اتفقنا مع صحافيات شابات على مرافقتهن في جولاتهنَّ في المناطق المتضررة. كنَّ يشععنَ طموحاً وطاقة. مُحبَّات لعملهنَّ الصحافي. حي «قويزة» الذي يقع جنوب شرق الخط السريع كان أكثر المناطق تضرراً.

شاهدتُ خلال زياراتي التفقدية الكثير من المآسي الإنسانية. كانت الأظافر المتشبثة بالحياة لا تزال آثارها محفورة على سقوف الحجرات، داخل المباني الصغيرة الواقعة في مجرى السيل، بعد أن تهدَّم جزء كبير منها.

شاهدت في منطقة «الصواعد» حفرة الموت الشهيرة التي تراكمت فيها جثث الضحايا الذين لم يستطيعوا الفرار من قدرهم المأساوي. كثيرة هي الحكايات التي سمعناها من أفواه أصحابها وأدمت قلوبنا. قصة شاب في مُقتبل عمره فاجأه السيل، تعلَّق بشجرة قريبة من داره، شاهد بأم عينيه أخاه والمياه تجرفه. مدَّ يده، أمسك به في اللحظة الأخيرة. بقيا هناك فترة طويلة. أخذا ينظران بعيون مفجوعة إلى بيتهما الذي أغرقته المياه. لم ينجُ من أسرتهما المكونة من عشرة أفراد، والتي كانت تعيش محشورة في حجرة متواضعة، سوى أختهما التي كُتب لها عمر جديد. بقيت معلَّقة بمروحة السقف. وأخوهما الصغير الذي أفلح في الإمساك بحافة الباب. وطفل رضيع حملته الأريكة وطافت به في أرجاء الغرفة ليكون شاهداً على فضيحة وطن!

آه من الأمومة عندما تُصاب قدراتها بالشلل! سمعنا هناك قصة الأم المكلومة التي عندما أخذ الماء بالارتفاع داخل البيت لم تجد سوى الاحتماء بستائر النوافذ مع بناتها والتعلُّق بها. وعندما نظرت إلى أسفل ورأت طفلها الرضيع يصرخ فوق الأريكة العائمة، تغلَّبت عليها عواطفها. قفزت لتنقذ ولدها وتعود لتجد بناتها الثلاث قد خارت قواهنَّ وغرقنَ أمام ناظريها.

والطفلة الصغيرة التي ظلَّت تُصارع المياه بذراعيها الضئيلتين. بقيت تُنادي باكية على والديها اللذين سبقاها إلى رحلة اللاعودة. ظلَّت صيحاتها تشقُّ عنان السماء حتى اختفت مع يُتمِها المفاجئ إلى الأبد. حضرت في خاطري هيئة ابنتي. شعرتُ بقلبي يعتصر كمداً. دعوتُ الله أن يحفظها في غربتها.

سمعنا حكايات أخرى لا تقلُّ مأساوية عن أسر غرقت بكاملها في سياراتها داخل نفق طريق الملك عبد الله. كلما عُدْتُ من جولتي بكيتُ بحرقة في سريري. كنت أذرف الدمع مدراراً. لم أكتشف مقدار حبي لمدينتي إلا عندما رأيتها تُطعن في خاصرتها بسكاكين باردة! لم أصدِّق عينيَّ وأنا أرى المشاهد التي بثَّها موقع «يوتيوب» على شبكة الإنترنت. مشاهد الجثث التي تمَّ انتشالها لأطفال ونساء ورجال من مختلف الأعمار تُدمي الفؤاد. من غير الممكن أن تكون مدينتي تعرَّضت لهذا الكم من الغدر! كلما أغمضت عينيَّ تراءت لي صور الغرقى وهم يُصارعون بأجسادهم قوة اندفاع السيل حتى خارت قواهم ووَدَّعوا الحياة تاركين أحلامهم مطمورة تحت الطمي. لو أراد مُخرج هوليودي أن يُصنع فيلماً يضاهي فيلم «تايتانيك» في مأساويته، لما وجد مناظر أبشع مما جرى في مدينتي جدَّة.

أخذت الصحف تتحدث عن الأخطار البيئية المحدقة بجدَّة إذا ما انفجرت بحيرة «المسك» التي يتم تفريغ المخلفات الآدمية في

قاعها. تنبَّأ المحللون بأن طوفان البحيرة سيُحدث كارثة أكبر من كارثة تسونامي في إندونيسيا. قمنا بزيارة لها. تقع البحيرة شرق جدَّة قرب حي التوفيق وحي الأجواد. يشتكي سكانها من إصابتهم بالأمراض الصدرية نتيجة تلوث المنطقة. وقفتُ عند حافة البحيرة. كان منسوب المياه قد ارتفع فيها أيام موجة الأمطار إلى أعلى مستوى وتمَّ خفضها بعد شفطها ورمي مخلفاتها في مكان سكني آخر. الروائح طوال الطريق إلى بحيرة المسك لا تُطاق. سيارات «اللوري» المحملة بالمخلفات الآدمية تقف مُصطفَّة خلف بعضها، تنتظر دورها لتفريغ حمولتها. منظر الحشرات المتجمعة على الأوساخ المتراكمة أصابني بالغثيان. شعرتُ بالدوار. كلما توغَّلنا إلى الداخل شعرتُ بالعرق يتصبَّب من جبيني. إحساس متزايد بالإحباط يعصر قلبي. حال عودتي هرعتُ إلى الهاتف. سألتُ جعفر بنبرة تُغلِّفها المرارة: «لماذا لا يُوجد تصريف صحي في أحياء جدَّة؟! كيف سُمح للناس بالبناء في مجرى السيل الخطر؟! أين مشايخ الدين من مُصيبة أهل جدَّة؟!». ردَّ جعفر منفعلاً: «لا تسأليني عن أمور أكبر منك ومني. الكل ملهيٌّ بالبحث عن قطع دسمة يمضغها بأضراسه الجشعة. أمَّا مشايخنا فهم مشغولون بقضية الاختلاط. لديهم عقدة دفينة اسمها المرأة! ألم تسمعي عن المثل المصري الشائع: «اللي يخاف من العفريت يطلعْلُه».

علل كثيرة أصابتني. صرت أخرج كثيراً عن طوري. ترتفع ثورة غضبي. أغرس من دون وعي أظافري في جسد جعفر. أخبط

على صدره. تُصيبني هستيريا وجع. أصرخ في وجهه: «هل خذلنا أوطاننا أم أوطاننا هي التي خذلتنا؟ أنت السبب في ما آلت إليه نفسي. لماذا غيَّرتني؟ كنت راضية بما قسمه الله لي. سعيدة بجهلي ومحدودية تفكيري. لماذا أدخلتني عالمك؟! لماذا فتحتَ عينيَّ على أمور كنت أجهلها؟! صرتُ موقنة بأن الشاعر المتنبي كان على صواب حين نَظَمَ بيته الشهير:

ذو العقلِ يَشقى في النعيمِ بعقلهِ وأخو الجهالةِ في الشقاوةِ ينعَمُ

يشدُّني إليه. يضمُّني بقوة بين ذراعيه، قائلاً بنبرة هادئة: «اهدئي يا فاطمة. تمالكي أعصابك. لا أريدكِ أن تفكري بهذه الطريقة. لا تكفري بأشياء جميلة اقتربتِ منها على كبر. المعرفة تفتح آفاقنا. هي بحر هائل زاخر بالدرر تجعلنا نرى الدنيا من كافة زواياها. إياك والندم على نصر قمتِ بتحقيقه في حياتك». كان يملك قوة جبارة على إخماد هياجي، اختراق أعماقي، هدهدة روحي بحنانه المتدفق. تهدأ انفعالاتي. استكين على صدره كطفلة تعبت من الركض في مشوار حياتها.

صرتُ، من دون أن أدري، أحب الاسترخاء في ربوع طفولتي. ربما لأنها تُزيح الغمَّ عن قلبي المهموم. أتسكع في أروقتها. أمرح في دهاليزها. أشتاق لسماع صوت ضحكاتي البريئة وأنا ألعب في حديقة بيت أبي تحت زخَّات المطر. تُرى لماذا أصبحتُ أمقت المطر؟ لماذا لم أعد

أُطيق ترديد حروفه: م ط ر؟! لماذا تنتابني رجفة خوف كلما سمعت صوت الرعد أو لمحت ضوء البرق وهو يشق عنان السماء؟! هل لأنهما متورطان مع المطر في خطيئته، لكونه لا يأتي إلا وهو مسترخ، فاردٌ ساقيه على بساطَيهما! هل من الممكن أن نكره شيئاً عظيماً شببنا على حبه؟! هل من السهل الانقلاب على معشوقنا بهذه السهولة؟! لقد اكتشفتُ أخيراً أننا عندما تقع لنا مصيبة، أو نحس بلسعة ألم في دواخلنا، ننقض العهد بيسر، لا شعورياً، من دون أن ندري. نتنكَّر لأي ذكرى جميلة تُذكِّرنا بها. قلوبنا الآدمية تُمزِّق صكوك الغفران إذا كان جرحها دامياً!

(٥)

أعلن الملك عبد الله صرف مليون ريال لكل أسرة فقدت فرداً من أفرادها. كانت هناك مشكلة عويصة واجهها الأهالي؛ عدد كبير من الجثث جرفتها السيول، بعضها نهشتها الكلاب الضالة. هذا يعني أنَّ من لا يملك دليلاً دامغاً على جريرة الموت، أو يفشل في أن يُقدِّم إثباتاً قوياً على اقتراف الموت جريمته في وضح النهار، ليس له الحق في استلام المليون!

بدأ الناس يتذمرون من بطء صرف التعويضات. أخذت خدمة الإيواء تتقاعس في تقديم المعونات الفورية لهم وطالبت المتضررين بالبحث بأنفسهم عن شقق مفروشة. فات المسؤولون أن أغلبيتهم فقدوا هوياتهم الشخصية وبطاقات صرف حسابهم أثناء أحداث الرعب التي عاشوها.

قرأتُ في موقع «راصد» أن أهل القطيف قرروا القيام بحملة تبرعات لأهالي جدَّة، وأن الشرطة منعتهم من المشاركة طالبة منهم العودة من حيث أتوا. وإصرار فنانو وفنانات القطيف على إقامة معرض خيري في نادي الفنون بالقطيف سمُّوه «وقفة بين ساحلين» يعود ريعه للمتضررين من سيول جدَّة. ومطلب الشيخ حسن الصفَّار بوجوب خلق مناخ معتدل ضد المتشددين من الطرفين السنَّة والشيعة ضارباً المثل بـ «الحوار الوطني» الذي أطلقه الملك عبد الله للقضاء على التمييز العنصري. قرأت اسم جعفر بين الأسماء المنادية بتأسيس رابطة وطنية أهلية تقوم على احترام الطوائف جميعها. غمرني الاعتزاز وأنا أتأمل صورة جعفر بسحنته التي تفيض طيبة، بعينيه العميقتين الطافحتين بالعطاء.

جميع الأحداث التي وقعت في الآونة الأخيرة هزَّتني. قلبت معاييري. كذبات كثيرة لمستها بأم عيني. تاريخنا الذي يغصُّ بأحداث مزيفة، مجتمعنا المتناقض، تزايد الفقراء في بلد يتباهى بثرواته وبأعداد أثريائه، رائحة الفساد العفنة التي يشمُّها الغرباء قبل الأقرباء في ميادينا الرئيسية وفي أروقة وزاراتنا، جحافل النهب التي تلتهم بتروسها الحادة كل ما يعترض طريقها، تاركة البسطاء في العراء يندبون حظَّهم العاثر وينتظرون معجزة من السماء! إعلامنا المنافق الذي يشوِّه الكثير من الحقائق. كتب أحدهم: «قامت شركتنا الوطنية أرامكو بالتبرع لضحايا إعصار «كاترينا» بملايين الدولارات لبناء عشرات الوحدات

السكنية». أليس أهل جدَّة أقرب من أهل «نيو أورليانز!». شعوري بالخيبة يكبر يوماً بعد يوم. الساعات التي أسرقها من حياتي مع جعفر تمنحني رشفة تُبلِّل جوفي العطِش. تُعطيني دفعة للاستمرارية. لولاه لضاقت الحياة في نظري. ما إن يرحل حتى تجثم على قلبي الوساوس. أضحيتُ شرسة الطباع. الحقد في أعماقي يتفاقم على مجتمعي بكل ما فيه من صور مقيتة. أقرِّع نفسي العاصية. ألومها على تشاؤمها. أصبِّر نفسي بحكمة أجدادي. بقاء الحال من المُحال.

جاء اليوم الذي كنتُ متعطِّشة له مثل ملايين غيري. استمعت إلى مرسوم ملكي، حفرته منذ لحظة صدوره في قلب ذاكرتي. تضمَّن إحالة كافة المتهمين في فاجعة جدَّة إلى هيئة الرقابة والتحقيق والادعاء العام، وإيقاف البيع والبناء والمنح والتعويض في الأراضي الواقعة ببطون الأودية، وتصحيح أوضاع الأحياء المتضررة، وقيام وزارة المياه والكهرباء بمعالجة وضع بحيرة الصرف الصحي والعمل على التخلص منها نهائياً خلال عام.

انهمرت الدموع من عينيَّ. شعرت بعفونة القهر تتلاشى من أعماقي، بثقل الغبن ينزاح عن صدري. بالتأكيد هناك عدالة، وإنْ كانت ترفرف بخجل فوق أسطح بناياتنا! ربما تكون عدالة مبتورة! قد يتأخر وصولها شهوراً أو أعواماً!! قد تضلُّ طريقها إلى الأبد!! قد تمرُّ بأناس انتهازيين يُحاولون بكل ما يملكون من حيل وضيعة ثنيَها عن تكملة

مشوارها! لكن يكفي أن هناك غيثاً من التفاؤل أخذ ينهمر على أجواء مدينتي بعد سنوات قحط دمَّرت محاصيلها وأتلفت تربتها. أيقنت أن الأمل لا يزال حياً يُرزق، وأن الغد سيأتي حتماً مُحمَّلاً بعبق الإنصاف. هرعت إلى الهاتف. طلبت إلى جعفر أن يجيئني على طائرة المساء. قال جزعاً: «ماذا هناك؟ هل أنتِ بخير؟!». قلت: «بالتأكيد أنا بخير ما دمتَ تُضيء فضاءات حياتي». قرع جرس الباب. هرعتُ لأفتحه. فاجأتْه هيئتي. كنت أقف بعباءتي وبجانبي حقيبة ملابس كبيرة. فغر فاه. قلتُ له:

- لم يعد في عمري بقية لأراوغ. لن أدعك تفلت من يدي. أنتَ الحقيقة الراسخة في حياتي، الهدية التي فاجأني بها القدر. خذني لأرضك فأنا في شوق لها.

- أنا خائف عليكِ. قد ترتفع الموجة لتصبح أعلى من «تسونامي»! قد لا يقدر جسدك على ركوبها! قد تجرفك بعيداً عني ولا تجدين من يمد لك يد العون! قد تُلقيك على شاطئ موحش!

- الضعفاء وحدهم يستسلمون لظروفهم ويرضخون لواقعهم. لقد تعلَّمت منك البسالة.

- هل فكَّرت جيداً في ما أنت مُقدمة عليه؟

- ألم تقل لي إن الحب مسؤولية؟ لقد قررت أن أدافع عن حبي حتى آخر قطرة من دمي. لن أكون ليلى عامرية أخرى وأرضخ

صاغرة لحكم قومي. لن أدعك تصبح قيس بن الملوَّح وتهيم في صحراء الربع الخالي حزناً على فراقي، وتُخلِّد ذكراي في أشعار غزل يتناقلها العشاق في ما بينهم بعد رحيل روحينا عن الدنيا. العشق يا حبيبي لا تتغير مقاييسه مع تعاقب الأزمان. شيء واحد يجعله يُغيِّر ثوبه ويتبرأ من مبادئه ويكفر بشعائره؛ عندما يتبخر أريج الهوى من قلوب المحبين!».

ارتسمتْ على وجه جعفر أريحية السرور: «اسمعي يا ملاكي، أنا رجل كاثوليكيُّ الهوى. لا فراق بيننا إلا بالموت. هل توافقين على شَرطي؟».

أومأتُ راضية. أخذ قلبي يتراقص من السعادة. حملني بين ذراعيه. غمر وجهي بقبلاته الدافئة. كانت أغنية طلال مدَّاح تصدح من جهاز الإستريو:

«وطني الحبيب لا أحبُّ سواه. وطني الذي عِشْتُ تحت سمائه. وهو الذي قد عشتُ تحت رباه. منذ الطفولة قد عشقتُ ربوعه. إنِّي أُحِبُّ سهوله ورُباه».

فاطمة امرأة بسيطة. قضت شبابها مُحاصرة داخل سياج ذكرى زوجها الراحل، ما جعلها تعيش في وحدة قاسية سنوات طويلة.

تلتقي بجعفر. شاب يضجُّ بالحياة ويصغرها بأعوام كثيرة. ترى فيه خلاصها. يتعلّق بها. يأخذ بيدها. يريها عوالم جديدة لم تقترب من شواطئها يوماً. يفتح لها أبواب المعرفة على مصراعيها.

تكتشف أن رجُلَها شيعيُّ المذهب. تتوجّس من الاقتراب وهي المرأة السنّية. يُسيطر عليها الخوف من فقدان حب وجدته في منتصف العمر...

زينب حفني كاتبة وروائية وقاصّة سعودية. من أعمالها القصصية «نساء عند خط الاستواء» و «هناك أشياء تغيب»، وروايتا « لم أعد أبكي» و«ملامح» الصادرتان عن دار الساقي.

ISBN 978-1-85516-301-0
9 781855 163010 >

DAR
AL SAQI
دار الساقي